السَّفر الأخير

بسم الله الرحمن الرحيم

محمد زكي رمضان يوسف

السَّفر الأخير

دار المكتبي

الطبعة الأولى
2018-1439

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الإلكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي.

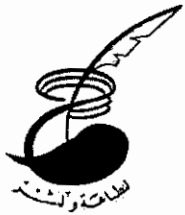

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - الشارقة - القاهرة
دمشق هاتف: 00963112248433 فاكس: 00963112248432 ص.ب: 31426
الشارقة هاتف: 0097165512262 فاكس: 0097165512264 ص.ب: 3309
Email almaktabi@gmail.com
www.almaktabi.com

إهداء

إلى اليد الخشنة والأنامل المتشقِّقة . .

إلى الجسم الذي عانىٰ والروح التي قاست . .

إلى العين التي سهرت وحرست . .

إلى الجبين النَّدي والوجه السَّمح المغضّن . .

إلى كهل الستين في روح الشباب . .

إلى موضع الإجلال والتقدير والاحترام . .

إلى والدي الكريم رمضان يوسف

أهدي هذا الكتاب

المؤلف

مدينٌ لشقيقي محمد خير

لولاه

ما رأى النورَ

هذا السِّفر

محمد زكي

مقدمة قصيرة

عزيزي القارىء :

هذه قصة واقعية.. جرت أحداثها في شمال كردستان بتركيا ، في قرية تسمى (كَفْري قُل) أي : الصخرة المثقوبة ، التابعة لقضاء أرزروم.. في زمن عصيب أيام سفر برلك المشهورة (الحرب العالمية الأولى).

وقد سمعها والدي من أهل تلك المنطقة عندما كان يخدم في الجيش التركي هناك ، سردها عليّ بالكردية ، وقمت أنا بترجمتها وصياغتها إلى العربية.. ولم أزد فيها سوى بعض الشخصيات التي لا بد منها لربط أحداث القصة ونسج وقائعها على الوجه الروائي المطلوب..

وبطلا القصة المحوريان :

* (نَنَاس).. ويعني بالعربية : غير معروف !

* (وكُلْبُهار).. وتعني : وردة الربيع !

إنها قصة أسرة من المجتمع الكردي. . . .

تميز أفرادها بقلوب رقيقة جداً. . لا تعرف الاعتدال في عواطفها. . فإذا أحبّت هاجت وماجت. . وأخذ الحبّ منها كل مأخذ. . حتى إذا ذاقت كأس الفراق لم تتحمل لواعجه لتقضي حزناً وكمداً !

وأحببت ألا تضيع هذه القصة المأساوية بين طيات الزمن .

وأن تكون عزاء للقلوب الرقيقة. . الصافية. . التي لا تتحمل !

وبعد هذا. . فالقصة من تراث الأدب الكردي. . الذي ينبغي أن يحفظ ويعتنى به وبأمثاله. .

ولا أطيل على القارىء. . فلعله يستعجل معرفة نموذج بشري عُرف برقة متناهية. . وصفاء عجيب !

آملاً أن أقدم قريباً مجموعة قصصية للقراء. . تهتم بأدب الفقراء. . والله الموفق. . .

محمد زكي

الصخرة المثقوبة !

قرية جميلة بهية ، تحيط بها جبال منقوشة بالأشجار المتناثرة هنا وهناك . . . وينابيع غزيرة تنحدر في جداول ، وتسقي بساتين الأهالي المليئة بأشجار الفاكهة . .

المُلا سيف الدين ، أحب الشخصيات عند أهل القرية ، فهو إمامهم ، ومؤذنهم ، ومعلمهم ، ومرجعهم .

والمختار عبد العزيز ، حليم ، رؤوف بأهل القرية ، وخاصة الفقراء منهم .

والطبيب العجوز قهرمان ، شيخ في الثمانينات ، محدودب الظهر ، لكنه نشيط ، سريع البديهة ، قوي الذاكرة ، ورث الطب أباً عن جَدّ ، يقضي ساعات من النهار في الجبال المحيطة بالقرية بين الأعشاب والنباتات ، ليقطف ما يرى فيه دواء لمرضاه . .

والتاجر الأمين محمد علي ، يجمع في المواسم محاصيل القرية من صوف وجبن ومواشي وزبيب وقمح وشعير ، ليأخذها إلى المدينة ويبيعها . . .

أما الشيخ محمد ، والد نَنَاس ، فهو بنّاء ماهر ، ميسور الحال . . الناس في القرية يعملون طوال النهار ، دون كلل أو ملل . . . فهذا يحرث ، وآخر يزرع ، وثالث يغرس ، ورابع يقطع . . . وهناك من يسقي ، أو يرعى ، أو يحصد . . . مواسم كثيرة في السنة الواحدة . . .

والنساء لهن نصيب كبير في العمل . . . فهن يساعدن أزواجهن ويعينهن بما استطعن إلى ذلك سبيلاً . . . وترىٰ أفواجاً منهن بعد صلاة الظهر يتجهن إلى الحقول ، ومعهن الزاد إلى أزواجهن وأولادهن ، ليعملن ما يستطعنه هناك ، ثم يعدن إلى شؤون بيوتهن . . .

أما هيلانة والشيخ محمد ، فقد كانا أكثر الناس عملاً وإقبالاً على الدنيا . . . ترى ما السر ؟ هل هو شعور منهما بالسعادة لأنهما يعملان لابنهما الوحيد العزيز المدلل نَنَاس ؟

هيلانة نشيطة ، تعمل من الفجر حتى الضُّحىٰ ، ثم تتجه نحو المرعى إلى حيث نناس بين زملائه يرعى الغنم ، فتحلب الغنم وتعود إلى البيت ، وترتّب ما بقي من أعمال ، وتطمئن على بناتها الأربع ، ثم تجهز الزاد للشيخ محمد ، وتخرج قبل نساء القرية ، متجهة إلى زوجها ، وتعمل معه حتى وقت الغداء . . . ثم يأكلان . . . ويتبادلان الأحاديث المسلية . .

وكثيراً ما كان يقول لها الشيخ محمد :

ـ لا تتعبي نفسك كثيراً ، فأنا بحاجة إليك ، لا تعملي كثيراً ، كوني محافظة على نضارتك وشبابك وإلا أحرجتني أن أتزوج فتاة ثانية جميلة حسناء !

لكن هيلانة ترد عليه وهي واثقة من نفسها :

ـ يا شيخ محمد افعل ما يطيب لك ، وتزوج بمن تريد ، فأنا لا أبالي ، إن نناس على أبواب الشباب ، وسيكون خير عون لي إن شاء الله ، وهل تطمع المرأة بأكثر من ولد مطيع ؟

ويطلق الشيخ محمد ضحكة مفاجئة ويقول لها :

ـ أكملي يا هيلانة ولا تخجلي ، قولي : وزوجاً محباً صالحاً !

لكن هيلانة تدير وجهها بدلال وتقول :

ـ ما أثقل مزاحك يا محمد !

فيرد الشيخ محمد . . . وهو لا يزال مبتسماً :

ـ ومن قال لك إنني أمزح ؟!

وسرعان ما كان الشيخ يواسي هيلانة ويطيب من خاطرها قبل أن يثير غضبها ويقول :

ـ أنّى تكون لي زوجة كأم نناس ، بخلقها وجمالها وحنانها ؟ إنك زوجة عظيمة ، بحر من الأدب ، لا يطيب لي عيش إلا قربك . . . كفي عن العمل وابقي إلى جنب أولادك ، فأنا أعمل ليل نهار ، كوني ذلك السراج الذي ينير الدار . . . ابقي شجرة مظللة ، وبسمة على شفاه الأسرة . . . أنا يا هيلانة مكتف باستقبالك لي عند المساء ساعة العودة من العمل ، إنك تفرِّجين عني بذلك تعب النهار وتهونين علي شقاء العمل . . . كفاك تعباً وشقاء .

وترد هيلانة بحنان :

ـ ليس بعد يا زوجي العزيز ، سأبقى أعمل معك حتى يترعرع ننّاس ويحلّ محلي ، ولا تظنّ أنني أتعب من هذه الأعمال ، فسعادتي أعلى من أن يوهنها شيء !

* * *

ننّاس في الثانية عشرة من عمره ، يعمل ويلعب ما طاب له . . فهو يرعى الغنم مع زملائه ، ويمضي إلى الصيد ، ويعمل مع والده في الحقل ، وله جولات مع الفروسية ، حيث يركب فرس والده . . . وهو يزور خاله لقمان في (أرزروم) مرافقاً تاجر القرية محمد علي . وكان قهرمان الطبيب يحبه كثيراً ويصطحبه إلى الجبال . . . وعندما كان يرافق والده إلى المضافة يختار الجلوس إلى جانب المختار ، وإذا ذهب معه إلى المسجد ، يقترب من الإمام . . ويحب لو كان مكانه !

لقد كان محبوباً من قِبَلِ أهل القرية جميعاً ، فهو رغم حركاته ونشاطه المستمر ، ما كان يزعج أحداً ، ولا يضّر

زرعاً ، ولا يؤذي حقلاً . . . وكان فوق كل هذا مؤدباً رزيناً حيياً .

وكان والداه يخافان عليه كثيراً ، ولا تطمئن قلوبهما إلا بجواره . . . ويبذلان كل غال ونفيس لإسعاده . . . حتى غدا عزيزاً مدللاً كأنه ابن أمير !

وقد وهبه الله إلى جانب هذا عقلاً ذكياً وفكراً نيراً ، فقد كان أذكى تلاميذ الإمام سيف الدين .

وتمضي الأيام مريحة كنسمات الربيع ، ويتزن تفكير نناس . . . بدأ يفكر بكل ما حوله من جديد . . . ويشعر بالمسؤوليات الملقاة على عاتقه ، ويسمع من أستاذه سيف الدين خطبة الجمعة في بداية أشهر الحج . . . ويحث القادرين من أهل القرية على الحج إلى بيت الله . . . الركن الخامس من أركان الإسلام . ويستوعب نناس كل ما يقوله الإمام ، وتجد كلماته في قلبه كل إصغاء وتفكير ، ويتجه بعد الصلاة إلى بيت التاجر محمد علي ويقول له :

ـ إذا سافرت قريباً إلى (أرزروم) فلا تنسى أن تذكرني ، لقد اشتقت إلى خالي كثيراً .

ويبتسم التاجر قائلاً :

ـ لقد عزمت على السفر غداً إن شاء الله .

ويتهللّ وجه نناس فرحاً ويقول :

حسناً ، سنذهب سوية .

ويذهب نناس إلى البيت قائلاً لوالده :

ـ لقد اشتقت إلى خالي ، سأسافر غداً مع العم محمد علي لزيارته ، فهل أنت موافق يا أبي ؟

يقول الأب :

ـ لا يوجد أي مانع يا ولدي ، اعمل ما يطيب لك .

ويتجه نحو أمه قائلاً :

ـ وأنت يا أمي ؟

وتقول الأم :

ـ كان الله معك يا بني ، وأعادك إلينا سالماً .

وفي الصباح ، اتجه نناس والتاجر إلى (أرزروم) . . . وخيالات لا تنتهي . . . تداعب مخيلة نناس ، الذي بدا وكأنه

يفكر بأشياء كثيرة . . . دفعة واحدة !

وعندما حلّ به المطاف عند خاله الذي استقبله بحرارة بالغة ، وجَّه نناس الحديث إلى الحج والمشاعر المقدسة ، وتفاجأ عندما قال خاله :

ـ لقد نويت الحج هذا العام .

وتنبسط أسارير نناس لهذا الخبر المفرح ، وبدت نواجذه عن بسمة عريضة ارتسمت على فمه . . . ثم يكمل خاله الحديث ويقول :

ـ ولولا أخواتك الصغار ، وعمل والدك الذي لا ينتهي ، لاصطحبت أمك معي .

ويتنهّد نناس ، ويرفع عينيه إلى خاله قائلاً :

ـ الحق معك يا خالي ، إن أمي لا تستطيع أن تترك بناتها . . . ولكن ما رأيك أن تقنع والدي ليأتي معك ؟

ويجيب الخال بعد صمت قصير :

ـ يا ولدي ، الطريق بعيد ، ويستغرق ثلاثة أشهر ذهاباً وإياباً ، ولا أظنه يستطيع أن يترك أرضه كل هذه المدة ، إن

الأرض كالعيال يا نناس ، إذا اعتنيت بها عاشت ، وإذا تركتها ماتت .

لكن نناس يرد بحزم :

ـ أنا يا خالي سأحل محله ، وسأعمل قدر استطاعتي في الأرض .

ويردّ عليه خاله :

ـ لا طاقة لك بها يا نناس .

ويعود نناس إلى حزمه قائلاً :

ـ سأبذل كل جهدي يا خالي .

وبعد فترة صمت قصيرة ، يبتسم الخال ، ويقترب من نناس ، مقبّلاً جبينه وقائلاً :

ـ حسناً يا ولدي ، غداً إن شاء الله سنسافر معاً إلى القرية ، وسنتكلم في هذا الموضوع مع والدك ، وأدعو الله تعالى أن يقدر الخير لنا جميعاً .

* * *

وفي بيت الشيخ محمد يقلبون الأمر على وجوهه ، فلا يرون منفذاً لسفر أحد الأبوين . . . فلا هو يستطيع ترك حقله وبستانه أو تركهما في عهدة نناس الذي لا يقوى على العمل كله ولا خبرة له بإدارتها ، ولا هي تقدر على ترك بناتها الصغار وأعمال البيت . ثم إنهما في حِلٍّ من الذهاب ، فهما غير قادرين على الحج ، ولولا صحبة لقمان لما فكَّرا في ذلك .

وسرعان ما تبرق فكرة إلى عقل الأم ، فتستأذن من أخيها للحديث مع زوجها على انفراد . . ثم تهمس في أذنه قائلة :

ـ ما رأيك يا شيخ محمد أن يذهب نناس مع خاله إلى الحج ؟

وينتفض الشيخ قائلاً في خوف :

ـ لا يا هيلانة ، الطريق شاق وطويل ، وجسمه لا يتحمل .

لكنها تجيبه بسرعة :

ـ يا شيخ محمد دعنا نغتنم الفرصة ونبعثه مع أخي ، فأنت تعرف كم يحب نناس ، وسيهتم به أكثر مما يهتم بنفسه ، دعه

يذهب الآن قبل أن يصبح مثلنا مسؤولاً صاحب أرض وأولاد ، فيصعب عليه الذهاب . . . ماذا قلت ؟

ويردّ الشيخ الوقور :

ـ وماذا سأقول بعد أن أقنعتني ، إنها خير فرصة ، فليكن الله معه .

ويعودان إلى الجلسة .

وقبل أن يتجها بالحديث إلى لقمان ، بادراهما بقوله :

ـ عندي فكرة !

فقال الجميع :

ـ وما هي

قال في ابتسامة :

ـ ما رأيكم أن يصحبني ناس إلى الحج ، وهو أفضل مما لو كبر فتضيق عليه الفرص كما ضاقت عليكم ؟

وينظر الأبوان إلى بعضهما البعض ، ويستغربان من هذا التوافق العجيب ! وقالا :

ـ كنا نتكلم فيما قلته الآن . . . اتفقنا إذن !

ويهتز بدن ناس لما سمع ، إذ كيف يحج قبل والده ؟ فيقول بلهجة متهدجة حزينة :

ـ أنا أعترض يا أبي ، أرجوك أن تذهب أنت .

ويربِّتُ الوالد على كتف ابنه ويقول في هدوء وحنان :

ـ سأذهب يا ولدي بإذن الله ، اذهب أنت مع خالك ، وغداً إن شاء الله عندما تقوى على إدارة البيت والأرض ، سأذهب أنا وأمك ، تاركين كل شيء في عهدتك .

وتترقرق الدموع في عيني الابن البار ويقول :

ـ حسناً يا والدي ، كما تريد ، وأرجو من الله أن يحقق آمالنا ، ويتقبل أعمالنا .

ويقول الأب :

ـ سأوصي عمك محمد علي بأن يشتري لك فرساً وما يلزمك في الطريق .

لكن الخال لقمان يتدخل بجد ويقول :

ـ لا يا شيخ محمد ، ليس لي أهل سوى أختي هيلانة ، ونناس ولدي كما هو ولدك ، ونفقته كلها علي ذهاباً وإياباً .

وتفرح هيلانة بكلام شقيقها قائلة :

ـ جزاك الله خيراً يا أخي وبورك في أموالك .

ويقول الشيخ محمد بتأثر بالغ :

ـ أدامكم الله إخوة لبعضكم البعض ، لقد تفضلت علينا وغمرتنا بخيراتك منذ أن حظيتُ بهيلانة ، أرجو من الله أن يعينني على مكافأتك ورد جميلك . .

وأرجو يا لقمان أن تدبروا أموركم . . وسافروا دون أن تخبروني ، أو حتى تودعوني ، كان الله معكم وأعانكم في سفركم ، وادعوا لي هناك .

ويتحرك الشيخ محمد من مكانه بهدوء وبقلب كسير ، ويتجه بخطوات متعثرة إلى الحقل وهو يحدث نفسه :

رباه ماذا أفعل ، نناس لم يتحرك من هنا بعد ، ومع ذلك فأنا في شوق غامر إلى الجلوس معه والحديث إليه . . كيف سأصبر على فراقه ثلاثة أشهر ، وهل سنلتقي ثانية ؟ لماذا

سمحت له بالسفر ؟ لِمَ وافقت ؟ لا . . لا . . وكيف أمنعه من الحج . . اذهب يا ولدي اذهب ، رافقتك السلامة . سأفوِّض أمري إلى الله ، وسأبقى أنتظرك وأصبر على فراقك قدر استطاعتي . . وحتى آخر رمق . . سافر يا ولدي ، ولكن إياك أن تنسى والدك وتطيل البعد عنه . . لعلك لم تعرف بعد القلب الذي يحمله والدك بين جنبيه كم يرفرف وكم يضطرب . . لقد أمسى رقيقاً رقة الزهر الوليد . . ولقد بات أسير حبكم . . ولم يعد يطيق تحمل الأعباء كما كان ، والصبر على أحزان الزمان .

ويودع نناس والخال لقمان الأهل والأصحاب . .

وينظر نناس بعينين دامعتين إلى أمه قائلاً :

ـ أمي . . أين والدي !

وتردّ الأم في صوت متهدّج :

ـ لِمَ تسأل عنه يا ولدي ؟ ألم تودعه ؟ إن أباك ذو قلب رقيق ولا يستطيع أن يملك دموعه ومشاعره في مواقف كهذه . .

وتتوجس الأم خيفة على ابنها ، ولا تملك دموعها وقلقها ، فتتجه إلى شقيقها وتقول له بحزن وأسى :

ـ أخي لقمان ، أنت تعلم أن نناس ولدنا الوحيد ، ولو لم تكن أعزَّ الناس لما بعثناه معك ، إنه سيبقى أمانة عندك ، فكن حريصاً عليه .

وينظر لقمان إلى شقيقته ويقول لها في ثقة :

ـ سيكون نناس داخل القلب والعين وكفى . . وغداً عندما يعود إن شاء الله ستعرفين ذلك .

* * *

وتسير قافلة الحجاج على بركة الله . . ولا شيء يشغل لقمان عن ابن أخته . . كما كان موضع عناية القافلة جميعها ، وأولهم أميرها . .

وتشرف القافلة على المواقيت . . حدود الحرم . . ويغتسل نناس مع الحجاج ، ويتطيب ، ويلبس الإحرام ، ويصلي ركعتين ، ثم ينوي ، ويلبِّي ، ثم يدخل مكة . . وعندما تبصر

عينه الكعبة يدعو الله تعالى أن يزيدها تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابة.. ثم يطوف طواف القدوم ، ويقبل الحجر الأسود ، ثم يسعى بين الصفا والمروة.. ويكمل بقية أركان وسنن الحج ، ولم ينسَ عند الوقوف بعرفة أن يدعو لوالديه ما شاء من الدعاء ، ثم يتجه مع خاله إلى طيبة الطيبة ، حيث يرقد خاتم الأنبياء والمرسلين عليه الصلاة والسلام ، فيصلي في مسجده ، ويسلم على الرسول الأمين.. ويدعو هناك كثيراً .

ثم يعود مع القافلة ، وقد حمل معه بعض الهدايا ، وقليلاً من ماء زمزم لوالديه وأخواته.. والملا سيف الدين .

* * *

ويقترب موسم الحصاد في القرية.. وهيلانة فرحة.. فخورة بين نساء القرية لسفر ابنها إلى الحج ، لكنها لا تستطيع إخفاء قلقها.. ودعائها المستمر بعودته سالماً إلى البيت .

أما الشيخ محمد ، فقد ظهر الإعياء عليه ، ربما من العمل المستمر والبقاء الطويل تحت الشمس.. ثم إنه لا يكاد ينسى ابنه نناس ، ويخشى ألا يراه ثانية.. ويشتد ثقل الفراق على

قلبه ! ويشعر بصعوبة التنفس.. وصعوبة الاستمرار في العمل.. ويطلب من زوجته أن تدعه ينام هذه الليلة في البستان.. وتذرع بأنه رأى أن بعضهم قد ألحق الأذى بالبستان وسيترصد اللصوص هذه الليلة .

وفي الصباح لم يتمكن من الذهاب إلى المسجد لصلاة الفجر ، وبعد الغداء لم يتمكن من القيام إلى العمل ، وبقي مرتمياً تحت شجيرة هناك ، يرى خيال ناس واقفاً على جبل عرفة ، وهو يدعو لأبيه ، دعوات مؤثرة خاشعة.. وغداً سيكون العيد...

هرع الملا سيف الدين إلى بيت الشيخ محمد عندما لم يره في المسجد فجراً وظهراً . وعندما لم يجده هناك ، اتجه على الفور إلى البستان.. ويالهول ما رأى !

الشيخ يهمس ويتكلم بصعوبة بالغة :

رباه ! أهو السفر الأخير ؟ لا عودة ثانية إلى الدنيا ؟ أريد أن أرى ناس ولدي وفلذة كبدي ، أريد أن أحضنه وأضمه إلى صدري ، أريد أن أسمع صوته وأصغي إلى كلامه العذب

الجميل ، أريد أن أودعه وأوصيه ، سأقول له ما في قلبي . .

ثم نطق بالشهادة بصعوبة ، ولفظ أنفاسه الأخيرة ، وصعدت روحه إلى مالكها .

يقول الملا سيف الدين إنه فقد أعزَّ الناس وأرقهم وأرحمهم وأكرمهم . . لقد اختار ربي أجمل زهرة في بستاننا . . يا إلهي ماذا سأفعل ؟

الإمام يبحث عن شقيق الشيخ محمد (خليل) لكنه يفاجأ بأنه مسافر إلى أرزروم عند شقيقه خلف ، ثم يعود ومعه ابنه عدنان واثنان آخران من أهل القرية ، ويحملون جثة الشيخ محمد إلى الجامع . . وسرعان ما ينتشر الخبر ويعمّ القرية ، وتسمع به هيلانة وبناتها الصغيرات . . وتبدلت أفراح الأم إلى أحزان ، وأحلامها إلى سحب داكنة ، وأخذت الدموع تنهمر ، والنفوس تتحول إلى بحر من الكآبة والهموم . . .

وماذا ستفعل بعد ! لقد ساعدها أهل القرية ، فأقاموا بيت شعر للتعزية واستقبال الضيوف ، وتركوه قائماً إلى حين عودة نناس ليهنّأ بحجه .

ويعود نناس من الحج . . وعلى مشارف القرية يعرّج خطواته نحو البستان ، ليكون أول من يراه والده ، وليذكر له كل ما حدث . . ولكنه يلمح رجلاً لا يشبه أباه ، وعندما يقترب منه يرى أنه صديق صباه . . صبري ، فيتبادلان التحية ويتعانقان . . ويقول له نناس :

ـ نعم الصديق أنت يا صبري ، ومساعدتك لأبي في غيابي خير دليل على إخلاصك . . أين هو أبي ؟

ويجيب في تلعثم ظاهر :

ـ إنه في القرية . . .

ويلتقي ببعض أفراد القرية في طريقه إلى البيت ، ويقبّل أيديهم أو يأخذهم بالأحضان . . .

وكأنه يستلهم من نظراتهم الإعجاب والإجلال . .

ويصل البيت لتقبله أمه ، وتضمه إلى صدرها بكل حنان . . وعيناها تذرفان بالدموع . . وتجهش بالبكاء !

ويحاول نناس أن يخفف من بكائها فيقول لها في رجاء :

ـ كفاك بكاء يا أمي ، حسبتك ستفرحين بقدومي !

فتقول الأم في صوت متقطع :

ـ إنها دموع الفرح بلقائك يا بني . . تقبل الله حجك ، وغفر ذنبك ، وأخلف على من أنفق عليك . .

ويحتضن أخواته . . ويقبلهن . . ويقدم لهن الهدايا الجميلة . . ثم يتوجّه إلى أمه قائلاً :

ـ أين والدي يا أمي ؟

وتنكّس الأم رأسها . . وتقول له في إشفاق :

ـ استرح قليلاً يا بني . . ألا تشرب ماء ؟

وتنتبه خاتونة الصغيرة إلى سؤال ناس . . إنه السؤال نفسه الذي كانت توجهه لأمها فما كانت تجد جواباً يرتاح له قلبها ، وتقترب من ناس ، وتحدّق في عينيه ببراءة الطفولة لتستطيع إفهامه بمنطقها الخاص وتقول له باختصار :

ـ أخي ناس ، لقد ذهب والدي إلى القبور ولم يأت بعد !

وتعود الأم إلى البكاء ، وكأن جرحها قد فتح من جديد ، وتقول لناس :

ـ مات وهو يذكرك ، كان يتمنى أن يراك قبل أن يموت ، ولكن هذه إرادة الله ، إنها سنة الحياة يا ولدي ، علينا أن نصبر ، اللهم أجرنا في مصيبتنا وأخلف لنا خيراً منها . .

ها أنت قد كبرت يا ولدي ، وستكون لنا خير معين إن شاء الله .

ويتنهد نناس طويلاً ، ويقول وقد تغيرت لهجته وكأنه يتكلم من وادٍ عميق عميق :

نعم يا أمي . . هذا قدرنا وهذه مصيبتنا ، وشاء الله أن أكون بعيداً عن والدي الذي ربَّاني وأحبني ، وضحَّى براحته من أجلي ، إنه سيبقى معي أينما ذهبت ومهما طال الزمن ، وسأجعل من سيرته وسلوكه المستقيم نبراساً ومثالاً أحتذي به بعد رسول الله (ﷺ) . . رباه . . إنني لا أقول إلا ما يرضيك . . آمنت بقضائك وحكمتك . . وإنا لله وإنا إليه راجعون .

ثم مضى إلى الخيمة ، واستقبل فيها المهنئين بعودته من الحج . . ولكن ملامح الحزن والبؤس لا تفارق قسمات

وجهه . . ويلاحظ ذلك المختار فيقول :

ـ لا تجزع يا نناس ولا تحزن ، فكلنا لك آباء ، وسنكون خير معين لك إن شاء الله ، وسترانا إلى جنبك عند كل شدة ، فاصبر يا بني ، وكان الله في عونك وعوننا جميعاً .

* * *

وتمر الأيام . . طويلة الأنفاس . .

وتمضي أربع سنوات على وفاة الشيخ محمد . .

ويبقى نناس شاباً أبياً طموحاً ، يعتمد على نفسه ، ويُعيل أخواته ، ويقدم لهن ما يردن من لباس وزينة ، حتى تزوجت كبراهن (جيهان) من عدنان ابن الملا سيف الدين . .

ولكن ماذا عن نناس . . وعن عالم قلبه ؟ هل هناك ما يشغله ، ويدق عليه أبواب الخطر ؟

لا أحد يشعر بهذا . . إلا أمه !

فقد أحسّت أن شيئاً ما يشغله ، وهو كثيراً ما يسرح . . ويطيل التفكير ، حتى لا يشعر بما حوله . . وكأنه في عالم آخر ؟

ويبقى نناس حبيساً لسره كاتماً لأمره. . حتى ضاقت نفسه من ثقل ما يحمله في قلبه. . وشعر بتغيير حاله ، ولم يجد أحداً يبوح له بامره سوى صديقه الودود (صبري). . فهما لا يكادان يفترقان ، ولا يخفي أحدهما أمراً عن الآخر. . ويتجه إليه وينظر إلى وجهه وكأنه لم يره منذ زمن بعيد ، ويخاطبه بقلب مفعم بالحب ، يفوح من جوانبه عطر الرياحين. . .

ـ أخي صبري ، أتظن أن هناك أجمل من قريتنا ؟ انظر إلى هذه المروج الخضراء ، بل إلى تلك الجداول الطويلة الجميلة. . انظر إلى منظر الجبل الساحر الذي تزينه أشجار الجوز والبلوط والتين. . تمر من بينها شلالات صغيرة نابعة من عيون صافية !

وينظر إليه صديقه مستغرباً وهو يقول :

ـ حقاً إنها طبيعة ساحرة ومناظر جميلة تبهج القلب وتنعش الفؤاد. . جميل إغراؤك هذا وعجيب يا نناس. . ولكن جبال (سيبان خلات) لم تكن غريبة عليك ، ولا هذه الينابيع

والوديان والجداول.. فما بالها حركت فيك حسّ الجمال اليوم ؟ نناس.. ما بالك ؟ أفق من شرودك يا أخي ، أين وصلت بدنيا أحلامك ؟ لم يكن هذا من طبيعتك . أتكتم من أخيك سراً ما ؟ افتح لي قلبك وأبسط سريرتك ودلني على ما تشكو منه.. لعلني أساعدك أو أرشدك..

ويزفر نناس زفرة طويلة ، وعيناه مغرورقتان بالدموع.. ويقول بألم :

ـ نعم يا صبري ، قد آن الأوان أن أقول لك عن كل شيء ، عليّ أن أطلعك على ما أخفيته عليك لعلك تؤنسني في وحدتي وتخفف عني ما أعانيه.. فأنت الوحيد الذي أفضي إليه بأسراري وأأمن عليه تماماً.. هل تسمعني ؟

ويجيب صبري في دهشة واستغراب :

ـ نعم يا أخي أسمعك ، وكل جوارحي معك.. هلاّ استعجلت وتكلمت ؟

أتحاول أن تكتم عني ثانية ؟ اشرح لي صدرك.. أقسم لك يا نناس أنني أتألم عندما أراك هكذا ؟ أنت أخي في الله ،

ونحن أصدقاء منذ الصغر ، تربينا معاً في هذه الروابي الخضراء ، وشربنا معاً مياه هذه الينابيع ، وأكلنا من خيرات هذه الأرض ، وعشنا معاً جيراناً . . كفاك غموضاً وكبتاً .

ويسترسل نناس في حديثه بصوت ناعم هادىء مؤثر :

ـ حقاً يا أخي صبري ، إنها عشرة عشرين عاماً ، إنك أقرب المقربين ، وأكثر الناس اطلاعاً على أحوالي !

إنه يا صبري ثوب مطرز جميل قد لفَّ كل جسمي ، أبهر نوره عيني ، وملك منظره قلبي . . ثوب تزينه الأقمار والنجوم ، وتمرح عليه الفراشات ، وترقد عليه الزهور ، وتتلألأ فيه اليواقيت . . كله سر وسحر وجمال . . أريد ذلك الثوب . . أريد أن ألبسه . . أن أضعه في قلبي ، في عيني . إنها ابنة عمي (كُلْبُهار) التي جلعتني أعيش مرارة هذا الكتمان ، إنها حبي وهيامي ، إنها عصرت قلبي وشغلت فكري ، إنها سرقت مني نومي وأصابتني بداء الأرق في ليلي . . إنها يا صبري سري في قلبي ، تعيش في خيالي وفي يقظتي ومنامي ، نما حبها في قلبي منذ الصبا ، وكلما تناسيته

ظهر وبرز أكثر . . لقد طبعت صورتها على عيني ، إنها قمر ليلي وشمس نهاري . . البلابل تغرد على نغمات صوتها ، والطيور ترفرف وتحوم حول جمالها وحسنها ، ولا يبث الليل سواده إلا لحظة غمض جفنيها ، يغار منها القمر وتختفي النجوم لظهورها . . إنها ضالتي المفقودة ، ومناي أن أنالها . . إن قلبي متعطش للحديث إليها ، ولن يهدأ لي بال إلا بلقائها . . ويصمت صبري قليلاً ليستعيد أنفاسه بعد هذه المفاجأة التي لم يعمل لها حساباً ويقول :

ـ ويحك يا أخي ننّاس ، إنك عاشق ولهان . . ولا أدري لم كل هذا القلق والعذاب ، لم لا تطفىء هذه النار بالزواج ؟ لقد أحببت ابنة عمي ولم أتردد في طلب يدها من عمي ، وها هي ذي ابنة عمك . . ولا أحد يمنعك من ذلك ! فلماذا التردد والعذاب ؟

ولكن ننّاس يردّ في أسى بالغ :

ـ ليس بهذه السهولة أنال مرادي ، فوالله إنني لأرى درباً شائكاً ملغماً ليس باستطاعتي عبوره إلا إذا وضعت روحي على

كفي . . إن السير في الأراضي السهلة وعلى الطرق المعبدة يختلف عن صعود الجبال وتسلقها والسير في مسالكها . .

ويخفف صبري من لوعته قائلاً :

ـ تفاءل بالخير يا ناس واترك الأوهام التي تراود المحبين عادة ، فإنك أبصر مني وأرفع من أن ينالك الشيطان بسوء . .

ويقول ناس في حزن وكمد :

ـ أحسُّ أنه قدري يا صاحبي ، وإلا فمن ذا الذي يود أن يبصر مستقبله بمنظار أسود ؟ والفرق بيني وبينك كبير ، إنك تزوجت ابنة عمك (نسرين) بسهولة ، لأنه ليس لك ابن عم يقف في طريقك ويمنعك من طلب يدها . . أما أنا هذا المسكين الذي تراه بين يديك ، فقد شقي من اليوم الذي غادره فيه والده . . أبتاه . . أين أنت . . ؟ كم كنت تحبني . . كنت تقول لي : أنت الأمل الذي أعيش عليه . . أنت روحي وقلبي . . أنت هديتي من السماء . . كنتَ أباً عطوفاً كريماً ، كنتَ مرباياً حكيماً ، وعاملاً أميناً ، ليتني رحلت معك يا أبتي !

وتعتريه كآبة شديدة ، فيبكي بكاء الصغير ، ويتأثر به

صديقه صبري ، فيبكي لبكائه ، ثم يمسح دموعه ، ويربت على كتفي ننّاس ويهدهده بكلمات حانية مؤثرة . . ويخفف عنه بتذكيره وإرشاده ، ويمسح عنه عرقاً غزيراً تصبب من وجهه ثم يقول :

ـ كفاك تعذيباً لنفسك يا أخي ، واتق الله في صحتك ، وتذكر أخواتك ، فإنك المعين لهن بعد الله . . ثم . . لم تقل لي بعد يا ننّاس ما هو الحاجز الذي يقف بينك وبين ابنة عمك . . ؟

ويردّ ننّاس في كمد :

ـ نعم يا أخي . . إنه ليس بحاجز واحد ، بل حواجز كثيرة . . فأنا رقيق الحال ، لا مال عندي أقدمه مهراً لابنة عمي (كُلبهار) وأنا يتيم . . وابن المسكين محمد الذي كان يزرع ويحصد بنفسه . . ثم إنني أعيل بنات يتيمات . . أما أولاد عمي الآخرون . . فإنهم أصحاب مال وجاه . . ويسكنون في أرزروم . . في قصور عالية . . ويملكون محلات وعمارات كثيرة . . لا أدري لماذا توجهت أعينهم إلى ابنة عمي في

القرية ، وهناك بنات كثيرات في المدينة . . لا . . إن كُلبهار تحبني . . أنا الوحيد الذي في قلبها . . أنا بطل قصتها وفارس أحلامها . . نعم هي قالت لي ذلك . . وكانت تقول أيضاً . . نعم ، كانت تقول : أنت الحبيب الذي أطمئن إليه ، أنت الراعي الذي أرتاح إليه ، أنت الكأس الوحيدة التي سأرتوي منها .

وترتخي أهدابه حانية لتتشابك وتؤلف دوحة حب خضراء . . في عالم عجيب . . ويقترب منه صديقه صبري . . ويبتسم . . ويقول همساً :

ـ أرأيت ما أجمل التفاؤل ؟ هيا يا أخي نناس أكمل ، ماذا كان جوابك لها ؟

بدت على وجه نناس ملامح الحياء ، وكأنه لا يريد أن يقول ما قاله هناك . . لكنه تشجع ، ورأى أنه مرتاح في حديثه هذا مع صديقة الحميم صبري فقال :

ـ قلت لها : أنت شمسي وقمري ، أنت بلسم روحي ، أنت العين التي أرى بها ، أنت البحر الذي أغرق فيه ، أنت

الريم الشارد الذي أطأ الفلاة لأجله ، أنت الزهرة المفضلة إلى قلبي من بساتين الزهور كلها . . أنت الشجرة التي أتفيأ ظلالها . . أنت زهر الربيع (كُلبُهار) . . ابنة عمي !

ويرقص صبري فرحاً ويقول ضاحكاً :

ـ إنك أصبحت شاعراً ، وستعلمني بعض الكلمات حتى أغازل بها زوجتي . . هنيئاً لك يا ناس ، إنك لم تهتم بشيء إلا وأبدعت فيه ، فأنت من فرسان المنطقة ، ومن أمهر الرماة ، وأصبر من كل زملائك على العمل الشاق ، وأسرعهم إلى النجدة ومدّ يد العون . تحب الناس وتتمنى لهم الخير . . هذا إضافة إلى جمالك وحسن خلقك وأدبك . . . ولن أنسى عزفك الجميل . . الحزين على الناي . . وحتى الفقر الذي أنت فيه ، يظهر معدنك الطيب وكرمك الأصيل !

ويضم ناس صديقه إلى صدره ويقول :

ـ إنك قد بالغت في المدح ، لعلك تمدح شخصاً غيري اسمه ناس . . إني لست أرى نفسي أهلاً لكل ما قلته ، فأنا ذلك الشاب اليتيم وأخ لأربع بنات يتيمات . . أنا ناس

المسكين الذي يقضي جميع أوقاته بين الحقل ورعي الغنم ، فإذا وجد فراغاً اتجه إلى حيث قبر أبيه ، يستأنس به هناك بين وحشة القبور !

ويدرك صبري أن صاحبه يتلمس طريقه ويريد أن يعرف حقيقة ما هو عليه ، وأن يسترشد بما يرشد إليه ، فينتهز هذه الفرصة ليذكره بما كان عليه ويشد من عضده ، وليبعده قليلاً عن الحب الأعمى الذي فتك بقلبه فأحاله إلى عصفور جريح . . أراد أن يشغله بأمور عالية هي أكبر من الصغائر التي يشغل بها نفسه . . فقال له :

ـ عدنا إلى الهموم يا نناس ، عدنا إلى الحزن والكآبة ، لماذا لا تبعد عن الظلام وتنظر إلى الدنيا من نوافذها المفتوحة ؟ لماذا لا تشعر بأنك رجل طليق تستطيع أن تفعل الكثير ؟

أنت رجل حرّ يا نناس ، فلا تكن عبداً للوساوس والأوهام .

وأقبل على هذه الدنيا بعين التفاؤل ، وارفع حجاب

التشاؤم المسدول سينكشف لك النور ، ودع ظلام الليل الدامس الذي أنت فيه يقبل عليك ضحى النهار الجديد . ألقِ الحمل الذي على ظهرك تشعر بالراحة والاطمئنان . كن قوياً يا أخي ، واعلم أن الأيام لا ترحم ، لا ترم بنفسك إلى الهاوية ، فإنه لا يليق بشاب مثلك أن يكون فريسة للأوهام والترّهات . كنتَ نعم المرشد لنا ـ معشر الشباب ـ كنت صاحب العقل الكبير ، كنت تجابه المصائب بصبر وحكمة فما الذي دهاك ؟

إنني لا ألومك على حسرتك وحزنك على والدك ، فقد كان رجلاً صالحاً ، وأباً لنا كلنا ، إن أفضاله عمت القرية كلها ، فما من رجل طلب مساعدته إلا وكان له نعم المعين ، كان يخفف عن الناس آلامهم وأحزانهم بالحكمة والموعظة الحسنة . . رحمه الله وأسكنه فسيح جناته ، كان قمة في المروءة والأخلاق . إن ذكراه باقية ومكانته في القلوب سامية . . ولكن ليس مثل موقفك يا نناس ، حيث تجعله عقدة عاصية أمام أعمالك وآمالك ، إنه لم يخلد في الدنيا أحد ، لقد فارقها أحب الخلق إلى الله وأكرمهم عنده محمد ﷺ . . فهذه

سنة الحياة . لا يكن موقفك بعد وفاة أبيك سلبياً يا نناس . . فحزنك الشديد لن يعيد إليه الحياة ! بل حاول دائماً أن تدعو له ، وتتصدق على الفقراء قدر استطاعتك . . ثم . . ألا أذكرك بالحديث الذي مرّ بنا عندما كنا ندرس عند الملا سيف الدين ؟ فقد روى الصحابي الجليل مالك بن ربيعة رضي الله عنه قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ، إذ جاءه رجل من بني سلمة فقال : يا رسول الله هل بقي من برّ أبوي شيء أبرّهما به بعد موتهما ؟ فقال : « **نعم ، الصلاة عليهما** [أي الدعاء لهما] **والاستغفار** لهما ، **وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما ، وإكرام صديقهما** » . فهلا أكثرت من الدعاء له عقب كل صلاة ، ومضيت إلى أمك وأخواتك لتطيب من خاطرهن ، فإن قلوبهن مشغولة عليك الآن . . وهلاّ مررت بأصدقاء والدك . . لتكرمهم . . وتقدرهم . . فإنك سترى في بريق عيونهم ذكرى والدك الطيب ومعاشرته الطيبة المباركة معهم . . هلاّ بقيت الولد الصالح الذي لا ينقطع به الثواب عن والده ، فقد كان رحمه الله دائم الرضى بما يبعثه الله له ، ودائم الشكر والحمد ، سعيداً ، دائم التفاؤل والانشراح ، فهل تريد

أن تخيب ظن والدك بك ؟ أليس حبك له يدعوك للاقتداء به . . وهذا ما قطعته على نفسك أنت ؟ أجبني يا نناس أجبني !!

ويجيب نناس بهدوء وبرودة أعصاب :

ـ سأكون عند ظن والدي بي ، وسأبقى على ما كنت عليه إن شاء الله .

قال صبري وهو يقترب منه :

ـ إذاً فهل يشغلك عيش أخواتك وهن في أحسن حال الآن ؟ وأفضل مما كنَّ عليه سابقاً ؟ أم تطمع أن تكون مثل أعمامك غنياً مرفهاً ؟

يقول نناس في ثبات :

ـ لا . . إنني والحمد لله راض بما يقسم الله لي من الرزق .

ويردف صبري قائلاً :

ـ فلعلك تفكر بما يؤول إليه وضعك بعد الزواج من كلبهار و . . يقاطعه نناس ويقول :

ـ كم أنت متفائل يا صبري ، أراك قد زوجتني من ابنة عمي

وحللت جميع مشاكلي ، ولم يبق إلا أن نتشاور فيما نسمي به أولادنا !

ثم يضحك ضحكة طويلة ويقول :

ـ إنني أشكرك يا عزيزي ، فقد ذكرتني بأشياء مهمة . . وزرعت في فؤادي الأمل من جديد ، وأدعو الله أن يقدر زواجي من ابنة عمي ، فإن حبي لها هو شغلي الشاغل الآن !

ويهبّ نناس واقفاً ، لكن صبري يمسك بيده قائلاً :

ـ تذكرت !

وينظر إليه نناس بدهشة ويقول :

ـ ماذا ؟

قال :

ـ قل لي يا نناس متى دار الحديث ببينك وبين كُلبهار ؟

وكيف جازت لك الخلوة بها ؟

ويجيب نناس مبتسماً :

ـ لا تشك بي يا صديقي ، ولا تبعد بك الظنون ، فأنا على

ما تعرفه عني إن شاء الله ، أتذكر عيد الفطر الماضي عندما سافرت أنت وزوجتك إلى بيت عمك ؟

قال :

ـ نعم تذكرت .

قال نناس :

ـ كانت أمي وأخواتي في زيارة إلى بيت خالي لقمان .

قال صبري وهو يستعجل الكلام :

ـ نعم . وماذا بعد ؟

قال :

ـ مرضت زوجة عمي قمرية ، واضطرت كلبهار أن تحل محل أمها وأمي ، وأن تأتي إلى مربع الغنم في الضحى لتحلبها ، وحضرت تلك المرة بصحبة أخيها الصغير مصطفى . فأعطيته حجلاً صغيراً كنت قد اصطدته يومها ، وأصبح يلهو به طوال وجوده هناك . ثم جمعت الغنم ، وجلست ابنة عمي لتحلب ، لكنني فوجئت بها تهرب وقد اصفرّ لونها ، واختبأت خلفي وهي تصرخ وتقول :

ـ ثعبان يا ناس . . ثعبان !

ودلتني على مكان الثعبان . . وكل جسمها يرتجف من الخوف الذي أصابها . وإذا بثعبان أسود طويل غليظ يتسلق جذع الشجرة القريبة منا ، فقلت لها :

ـ لا تخافي يا عزيزتي ، فإن الذي أخافك سيلقى شرّ جزاء مني ، وستطمئنين عندما ترين سهمي غائراً في جسمه !

ثم التقطتُ سهماً من كنانتي وأدخلته في القوس ، وسحبته بكل ما أعطيت من قوة ، فانطلق كالبرق ، وأصاب عنقه ، وثبت في ساق الشجرة ، وبقي الثعبان متدلياً في السهم .

فرحت كُلبهار وعادت إلى هدوئها وهي تنظر إلي وتضحك فرحة مسرورة ، ومن يومها زاد إعجابها وتعلقها بي ، ودار بيننا حديث عذب جميل ، رويت لك طرفاً منه .

ثم سكت قليلاً وتنهد وقال :

ـ أذكر ما قالته لي حينها . . لقد أرادت أن تطمئن وتعلم مدى تعلقي بها وحفاظي على حبي لها فقالت :

ـ ألهذه الدرجة تحبني يا ناس ؟ هل ستبقى محافظاً على هذا الحب ؟

وقلت لها :

ـ سأبقى الراعي الأمين ما دام قلبي ينبض . . ومَنْ غيرك في قلبي يا كُلبهار ؟

وعندما يلاحظ صبري أن صديقه قد سكت ، وأن ملامح وجهه تدل على أنه سيدخل في هواجس وأفكار لا تنتهي ، بادره بقوله :

ـ سبحان الله ، ولماذا كتمت عني كل هذا منذ عام كامل ؟

وكيف صبرت كل هذه الأيام وأنت واقع في حبها ؟ لماذا تعذب نفسك كل هذا يا ناس ؟

غداً إن شاء الله سنذهب إلى أبيها ونطلب يدها . وهل تعرف والدتك شيئاً من هذا ؟

قال ناس وقد عاد إليه الهمّ :

ـ لا يا أخي ، والدتي لم تعرف شيئاً بعد ، ولم يكن حبي

لها منذ سنة واحدة ، لقد أصبح لي أكثر من ثلاث سنوات وأنا أفكر فيها وأعيش مرارة كتمان حبي لها . . ولكن يا صبري ، لم يحن الأوان بعد لطلب يدها ، فمنذ يومين حضر رسول من عند عمي (خلف) ليخطب كُلبهار لابنه رشيد ، وأنت تعلم أن عمي طماع وبخيل ، ويحب النقود كثيراً ، ولا بد أنه وافق مباشرة !

قال له صبري في عزم وقوة :

ـ اسمع يا نناس ، إذا كان طمع عمك الوحيد هو النقود ، فإن كُلبهار ستكون لك بإذن الله . . سنبيع أنا وأنت أراضينا كلها ، سندفع لعمك ضعفي ما يدفعه عمك خلف له ، ثم سنبدأ حياتنا من جديد ، المهم أن تسعد أنت وتظفر بابنة عمك . . وتخلصها من عذاب الذل والإكراه .

وقال نناس في أسى :

ـ المشكلة يا صبري أنه يتودد إلى عمي خلف كثيراً ، ويتقرب منه بكل ما يستطيع . . ولا يرد له طلباً . . ليعيش تحت ظله وينال من بركات ثروته وغناه .

رباه !!

لِمَ كل هذا الظلم على الفقراء من بني البشر ؟ لماذا يكرهونهم ويزدرونهم ، وينظرون إليهم على أنهم دونهم في الحياة ؟ . . هل الفقر جريمة ؟ أما علموا أنهم سواسية عند الله ؟ فلا هذا يفيده غناه ولا ذاك يضره فقره ، بل كلاهما يمتحنان ، ليُرى ماذا يصنع هذا بثروته وهل ينفقه فيما يرضي الله ، وذاك هل يصبر ويرضى ويأخذ المال بالحلال ؟

وشعر صبري أنه أعاد إليه ذكرياته وتخيلاته فقال :

ـ هون عليك يا أخي نناس ، دعنا نر ماذا سيحصل . . لنتتبع الأخبار ونسأل عما صار . . فلعله لم يحصل بينهما اتفاق . . ونسأل الله لطفه .

قال نناس وهو ينفض ثوبه :

ـ كما ترى يا أخي .

ويمضي صبري إلى والدة نناس ، فيخبرها بكل شيء . . ولا ترى الأم أنها صدمت بهذه الأخبار . . فقد لمست من ابنها

تصرفات المحبين ، وأرادت أن تتصرف مع صبري بحكمة وروية . . وبسرعة أيضاً . . لإنقاذ الموقف . ورأت أن تطمئن أولاً إلى نتيجة المحادثات بين الأخوين . .

وشعرت أن هناك أموراً غامضة لم تستطع الوقوف عليها . . وصبرت أياماً على هذا . . ولكن لم يطل بها الصبر كثيراً ، فقد تناهت الأخبار إلى أن (رشيد) ابن خلف قد وقع في حب فتاة من المدينة ، وتزوجها دون أن يعلم به والده !

وتنفرج أسارير ناس للخبر ، ويحمد الله أن سلّم هذه المرة . واجتمع مع أمه وصديقه صبري لطلب يد كُلبهار . . فلا شك أن والدها قد غضب هذه المرة ، وسيوافق على طلبه انتقاماً من أخيه خلف وإنقاذاً لكرامة ابنته .

وتمضي هيلانة ومعها صبري إلى بيت خليل ، وتتحدث في الأمر . . لكنها تتفاجأ بالجواب . . الفظ الغليظ . . من قلب لا يعرف معنى الحب والمودة ويقول :

ـ إن ابنتي جميلة وعاقلة . . ويتمنى القرب منها كل غني . . وإذا كان خلف قد غُلب على أمره ، فإن هناك غيره ممن

سيتقدم لطلب يدها . . ولا تظنوا أنني سأعطيها لكل من يطرق علينا الباب !!

وتصمت هيلانة برهة . . ثم تقف وتقترب منه وتنظر إليه منكسرة الجانب ، وتترجاه ألاّ يردها خائبة ، حفاظاً على صلة الرحم ، وتكريماً لأخيه الشيخ محمد ، لكنه يصرُّ مستكبراً ويقول :

ـ لن أتراجع عما قلته ، ولن أقبل لأسرتي بديلاً عن الرفاهية والقصور العالية الجميلة . . ثم من أنتم ؟ وعلى أي أساس سأعطيكم كُلبهار ؟ إنها لا تليق إلا بالأكابر والبيوت الراقية . كيف تريدون أن أعطيكم ابنتي وما زلتم على حالكم ، وتسكنون ذلك الكوخ الذي بناء محمد لكم . . اخرجوا من بيتي ، ومتى تبين لك أنكم شبعتم ، عندها بإمكانكم أن تطلبوا بنات الناس !

وتشعر أم نناس أنها قد أهينت أمام رجل لا يعرف الأدب والاحترام ، فتجيبه بصوت منكسر فيه شيء من الحدة :

ـ يا أبا مصطفى ، الغنىٰ ليس كل شيء ، والفقر ليس عيباً ، فهما من قسمة رب العالمين ، ومبارك عليك ذلك الأخ الذي كنت تقدم له نصف محصولك حتى تكسب رضاه ويعطيك بعض النقود ، وانظر ماذا كانت النتيجة !

وخرجت حزينة تجر وراءها ذيول الخيبة والخجل .

ويخبرون نناس بذلك ، فيتلبّد أمامه الجو ، وتدور عيناه في أفق بلا نجوم . . وترتعش أصابعه . . فلا يرى ما يقوله . . ويجلس مطرقاً مهموماً ، ولا يعرف كيف يتصرف !

ويتدارك صبري الأمر فيقول لصديقه :

ـ أخي نناس ، سأخبرك بشيء أرجو ألاّ تلومني فيه ، ولا تفهمني خطأ !

قال نناس في ضعف وانكسار :

ـ هات ما عندك .

فقال صبري :

ـ صحيح أن كُلبهار ابنة عمك ، جميلة ، لكنها لا تليق بك

زوجة ، إنها مغرورة بنفسها وجمالها . . تظل رافعة رأسها ، كأنها تستهتر بكل ما حولها . فاسمع من أخيك وابتعد عنها ، وحاول أن تقترن بابنة حلال متواضعة . إن قريتنا لا تخلو من الفتيات الحسناوات العفيفات المتواضعات ، وهذه ابنة الملا سيف الدين تعرفها جيداً ، وشقيقتك متزوجة من أخيها ، فلماذا لا تطلب يدها ؟

قال نناس في صوت متهدّج مقهور :

ـ الخير والبركة في بنات الناس ، ولكن ابنة عمي دخلت قلبي وأحببتها ، وطفح الكيل ، ورغم ما وصفتها به ، فإنها تبقى ابنة عمي ، راقدة على قلبي . . لا يا صبري . . لن أتخلى عنها ولو كلف ذلك حياتي .

قال وهو ينظر إليه في حيرة :

ـ أراك ابتعدت بأفكارك ونويت على المصاعب والمتاعب !

وثب نناس من مكانه وكأنه فزع من حلم مزعج ، وقال بعصبية :

ـ نعم ، سأقترن بها رغماً عن أهلها ، سأخطفها إن شاء الله ، وأطير بها حيث يطيب لها العيش . . . لأنني لا أطيق العيش من دونها . وإذا كنت قد طلبتها من أهلها بالمعروف فلم يستجيبوا ، وأجابوا بكلام منكر سخيف ، فإنني أعلم كيف سأتدبر أمري ، وأطفىء النار التي في قلبي . . .

وبعدها على الدنيا السلام . . .

قال صبري في خوف وإشفاق :

ـ أهذا هو رأيك الأخير يا نناس ؟

قال في حزم :

ـ نعم يا صبري ، إنه رأيي الأخير ، ولن أتراجع عنه ولو كلف ذلك حياتي ، ولكن ليس الآن ، بل حتى يحين الوقت المناسب !

قال صبري :

ـ حسناً ، أفوض أمري لله ، سأكون معك ، وأساعدك حتى تصل إلى ما تصبو إليه ، ولو كنت غير مقتنع به . . . ماذا

أفعل ؟ قلبي يتأجج عليك ، وضميري يؤنبني إذ رأيتك وحدك في الميدان .

قال نناس وكأنه قد فرغ من الموضوع :

ـ جزاك الله خيراً يا أخي صبري ، وحتى ذلك الوقت يخلق الله ما يشاء !

* * *

هذه الصور قبل فتح الطريق

بقي ننّاس يتوسط ليحسن علاقاته مع بيت عمه دون جدوى ، وحاول وجهاء القرية أن يهدّؤوا من ثورة عمه وغضبه عليه دونما فائدة تذكر . . فهذه هي طبيعة عمه خليل : عصبي المزاج ، لا يحب سوى نفسه ، ولا يسمع النصيحة من أحد . . . معتدّ برأيه ، ويرى أن ما يقوله هو الصحيح ، وغيره ممن يخالفه على باطل ، حتى إنه كان دائم الخلاف مع شقيقه الشيخ محمد ، ذلك الرجل الطيب ، الذي حاز رضى كل من عرفه .

وبقي سداً بين القلبين المتحابين المكتويين بنار الهوى والشوق ، حتى عيل صبر ننّاس ، ولم ير حلاً سوى خطفها . . . .

ولكن كيف ؟

ذات ليلة دخل على صديقه صبري ، وطلب أن تتوسط زوجته بينه وبين كُلبهار للهروب بها . ورضيت نسرين بذلك ، ووافقت أن تكون صلة بين ذينك القلبين العاشقين . وجاء الاتفاق بعد أيام ثلاثة على أن يكون الموعد يوم الخميس بعد

المغرب . ويسمع نناس الخبر فيتدبر أمره ويخطط له جيداً ، ويتفق مع صبري ليحرس الأخير غنمه في ذلك اليوم .

ويسفر فجر يوم الخميس دون أن يرى أثراً لصبري ، ويسمع دقات سريعة على الباب . . تدخل نسرين لتخبره أن صبري مريض !

ويقوم نناس من مكانه وهو يهذي بكلمات لا معنى لها . . . وكأنه يندب حظّه . ويتجه إلى صديقه ليراه بحالة سيئة !

قال له صبري :

ـ صداع شديد ينتابني بين فترة وأخرى ، وسيزول بعد قليل إن شاء الله ، خذ أنت المواشي ، وسألحق بك بعدها مباشرة .

قال نناس وهو خارج :

ـ حسناً ، أتمنى لك شفاء عاجلاً .

ويأخذ نناس الغنم من بيت صبري ليضمها إلى أغنامه ، ثم يحمل بندقيته وزاده ، ويتجه نحو مرعى الأغنام ، بين جبال (سيبان خلات) المحيطة بالقرية ، المليئة بالأشجار البرية

الكثيفة . ولا تخلوا من حيوانات جبلية ، كالغزلان والوعول والذئاب والضباع . وانتشرت أغنامه بين الأشجار ، ترعى وترتع ، ومناس جالس على صخرة قريبة يطل عليها وهو يعزف على الناي ألحاناً حزينة شجية . وينتهي من معزوفته الطويلة ، ويفيق من أحلامه . . . وينتصب النهار دون أن يظهر أثر لصبري ، وعندما تمتد ظلال الأشجار ويرى الشمس تتجهز للوداع . . . ينوي العودة إلى البيت بأغنامه . ولكن ماذا سيقول عنه أهل القرية ؟!

لِمَ عاد في هذا الوقت ؟ أليس في ذلك سر ؟ نعم إنه أمر يثير شبهة ، إذاً سأمشي الهوينىٰ حتى أكون على مشارف القرية وقت الغروب .

وقبيل الغروب أراد أن يجمع أغنامه . . . فتناول الناي ، وأخذ يعزف عليه كعادته لتجتمع حوله ، ومن ثم ينطلق بها ـ على خط طويل ـ إلى القرية . وعند الهضبة الواقعة شمال القرية تفاجأ بهجوم ذئبين شرسين على قاصية أغنامه ، فيسرع إلى بندقيته ، ويطلق رصاصة قاتلة على أحدهما . وبينما لاذ

الآخر بالفرار ، رأى خشخشة وتوتراً من الجهة الأخرى للقطيع . ويسرع مرة أخرى إلى بندقيته . . . فيلقمها . . ولكنها تخونه هذه المرة على غير عادتها ! لم تنطلق الرصاصة . . . ولم يستسلم نناس . . فماذا سيكون موقفه أمام الناس إذا قالوا إنه لم يستطع دفع الشر عن أغنامه . . ألا يدل هذا على وصمه بالجبن واتهامه بالخور والضعف ؟ وهو ممن اشتهر بشجاعته ؟ وذو الشهرة لا بد أن يدفع ثمنها ولو كلفه ذلك كثيراً !

ويظهر أن الذئبين كانا جائعين شرسين ، فما كان يخيفهما تهديدات نناس وصراخه في وجههما وقذفهما بالحجارة . وكان كلما اقترب منهما ازداد عنادهما وتضاعفت شراستهما ! وانتهى الأمر إلى معركة مباشرة ، استخدم فيها الطرف الأول قوته الوحشية ، بواسطة أنيابه القوية الحادة وأظافره الطويلة الممزِّقة ، واستخدم الطرف الثاني خنجره القصير في يد ، واليد الأخرى فيها البندقية الخرساء .

ولولا شجاعة نناس ومهارته ، للقي ما تلقاه أية فريسة في

مثل هذه المعارك الخاسرة ، مع ذئاب متوحشة . . لكنه بقي يدافع ويستخدم أفانينه حتى تمكن من تسديد ضربة خنجر قوية إلى أحدهما . . . بينما كان الآخر يتمكن من عض نناس وتمزيق وجهه وظهره بمخالبه القوية . وانتهت المعركة بفرار الذئب الأخير ، وبقاء نناس على الأرض متضرجاً بدمائه ، غير قادر على الحركة . . أما أغنامه فقد اختفت بعضها مذعورة وراء أشجار قريبة ، بينما لاذ كثير منها بالفرار ، وفي مسارات مختلفة إلى القرية !

وفي القرية يُسمع دوي الرصاص . وبينما يتأهب بعض الرجال لمعرفة الخبر ، يتفاجؤون بأغنام مذعورة تهرب نحو القرية من الشمال . فعرفوا أن شراً قد حدث ، فهي إما أن تكون معركة عداوة وثأر ، أو أن يكون قطيع من الذئاب قد اعتدى على قطيع من الغنم ! ويتجهون نحو الهضبة ، بينما يؤذن الملا سيف الدين لصلاة المغرب .

كُلبهار جاهزة للانطلاق ، وهي في أعلى حالات القلق ، بينما صبري ما يزال يتقلب في فراشه من الألم . ونسرين

لا تدري ماذا تصنع ؟ فهل تترك زوجها المريض ، أما تذهب إلى كُلبهار لتنفيذ الموعد ؟ بينما الأمور لم ترتب ، ولم تسر على ما يرام ، وهذا صوت رصاص . . مصيبة جديدة في أفق مخطط نناس !

وتصل كوكبة من الرجال إلى هناك ، فترى نناس مضرجاً بدمائه . . . وذئب إلى جنبه يعوي من ألم مابه ، ويتنفس أنفاسه الأخيرة ، بينما حوله آثار معركة كبيرة . فيحملون نناس ، ويتجهون بأغنامه الباقية إلى القرية !

وظهر الاضطراب واضحاً على وجه كُلبهار ، ولم تدر ماذا تصنع وقد مضى على الموعد المحدد ساعة ! وبمن تشك ؟ بنناس أم بصبري أم بزوجته نسرين ؟ هل من المعقول أن يكون الخبر قد تسرب ؟ ولم تطل شكوكها ووساوسها ، فقد هرعت إليها نسرين لتخبرها بوصول نناس على الأكتاف !

وتتجه الأم وبناتها إلى الطبيب قهرمان . . . بقلوب واجفة وعيون دامعة . . ولم يتحمل قلب الأم منظر ابنها الدامي ، فأخذت تبكي مختفية في إحدى زوايا البيت . وبعد إسعافات

أولية يقرر الطبيب الشعبي قهرمان أن يحول نناس إلى مستشفى أرزروم خشية أن تكون الذئاب التي عضته حاملة للجراثيم !

ويُحمل على فرس ، يصحبه التاجر محمد علي وعمه خليل . . . والد كُلبهار ! ومع خاله لقمان يصلون إلى المستشفى ، وهو في حالة سيئة جداً ، حتى ظن مرافقاه أن شكوك قهرمان كانت في محلها . ويلتف حوله الأطباء ، وبعد إجراء فحوصات يضمدون جراحه العميقة ، ويروح نناس في إغماءة طويلة . . . حتى يومه الثاني !

ويعود التاجر محمد علي وعم نناس إلى القرية ، ويطمئنون أهلها على سلامة نناس .

أما كُلبهار فلم تستطع أن تطفىء أجيج النار في قلبها ، فبدأت تسأل والدها عن نناس :

ـ كيف حال ابن عمي نناس ؟ هل هو بخير ؟ ماذا قال الأطباء عن صحته ؟

قال الأب وقد ذعر من منظر ابنته وعصبيتها :

ـ لِمَ كل هذا الخوف والقلق ؟ وما بال وجهك شاحباً ؟

قالت بعصبية :

ـ سأبقى هكذا حتى أطمئن على ابن عمي نناس .

ولم يستطع والدها أن يزيد الطين بلّة وقد لاحظ تغير ابنته المفاجيء ، وكل شيء فيها قد ذبل ! فقال لها وكأنه يريد أن يتخلص من أسئلتها :

ـ لا تخافي يا ابنتي ، شهر واحد وسيكون نناس هنا إن شاء الله .

ولكنها تقول في غضب :

ـ وهل تستطيع أن تضمن لي حياتي خلال هذا الشهر ؟

قال الأب مندهشاً :

ـ لم أفهم ماذا تقصدين !

قالت وهي تبكي وترتجف من الغضب :

ـ ما عدت أصبر على الحالة التي أنا فيها ، وما عدت أطيق كتم ما في قلبي ، وها أنت ترى ما آلت إليه حالتي على ابن عمي الذي هو عمري وحياتي ، وإن تلك الليلة التي جرت له

فيها الحادثة ، كنت متفقة معه بأن نهرب سوية إلى العالم الذي كنا نحلم به !

ويقف الأب مذعوراً وقد فوجىء بما لم يتوقعه ، وشعر بخطئه ، فقال مهدئاً ابنته وحتى لا يستفحل الشر :

ـ كفى يا ابنتي . . لا تتكلمي ، فهمت ما تقولين ، وعد مني لك ومن هذه اللحظة أن تكوني لابن عمك . عودي إلى ما كنت عليه واطمئني . . . إنني أعترف بالخطأ الذي ارتكبته في حقكما . كان كل أملي أن أزوجك من شاب غني حتى يغمرك بالنعيم ويحفظ لك جمالك وكبرياءك . . !

وتنتعش كُلبهار من جديد ، وكأنها زهرة عطشى سقيت بالماء ، وتنهال على يدي والدها بالقبلات ، شاكرة له فضله وإحسانه .

وتنتهز فرصة طيب قلب والدها وتقول :

ـ لي عندك طلب أخير أتمنى أن لا تردني خائبة يا أبي !

قال الأب في ارتياح :

ـ قولي كُلبهار ، فأنا موافق عليه دون أن أعرف . فقط لا أريد أن أراك حزينة .

قالت في دلال وهي تمسح دموعها :

ـ أريد أن أزور نناس .

فقال الأب :

ـ حسناً سنزوره قريباً أنا وأنت وزوجة عمك هيلانة !

وتستغرب كُلبهار ذلك من والدها وتتساءل عن السر في طيب قلبه هذه المرة . وهي لم تعرفه سوى أنه صاحب ذلك القلب القاسي والطبع الشاذ الذي يميزه عن كل رجال القرية .

وبعد فترة صمت ، تبقى في مكانها ، وتشعر أنها عادت إلى طبيعتها السابقة . . . بعد أن مرت بتلك الحالة العصبية عندما سمعت بما جرى لنناس ، وأخذت تلوم نفسها :

الويل لي ، كيف تجرأت وبأي وجه صارحت أبي بما جرى بيني وبين نناس ، وطلبت منه ما طلبت ! لقد تغير كلانا ، فهل حدث لعقلنا شيء ؟! ما السرُّ يا ترى ؟

لا بد أن تعلمي يا كُلبهار . . . نعم ، هل يكون ما حدث لأبي خوفاً من الله بعد أن شعر أنه ظلم ؟ أم أشفق على نناس عندما رآه في تلك الحالة وليس له أحد يساعده فتحركت فيه روح الرحم ؟ أم أنه خاف عندما رآني في تلك الحالة المخيفة فانقلب خوفه إلى حب وتعلق أكثر بابنته . . . الذكية الجميلة ؟ أم أنه يخشى من فضيحة في المستقبل إذا بقي مصراً على رأيه ؟! أم لا يكون هذا كله . . بل هو مخطط فضل الأب أن يسير عليه لمرحلة مؤقتة ؟ لا أدري . . لا أدري !

أما هيلانة ، فقد رأت أنه فتح لها باب العم خليل ثانية ، وحاولت جاهدة أن تكون معه هادئة طيبة مجارية لأخلاقه ، حتى يتسنى لها طلب يد كُلبهار ثانية . . . وتسمع أنه سيزور نناس قريباً ، فتذهب فرحة إلى بيته ، وتطلب الذهاب معه ، ولكنها تتفاجأ أن كُلبهار أيضاً قد عزمت السفر إليه بموافقة والدها !! وتكاد تنسى ما أصاب نناس . . من شدة فرحها !

وفي المستشفى يمضي الخال لقمان العجوز إلى جنب ابن أخته أياماً وليالي عصيبة وكأنها سنون شداد ، وكانت تمر

فترات يرى ابن أخته بين الموت والحياة . . وكلما تذكر ما لا يحمد عقباه لجأ إلى البكاء . . . والدعاء :

اللهم إني لا أسألك ردّ القضاء ولكني أسألك اللطف فيه .

اللهم إني عاقر . . لا ولد لي ولا بنت . . . وإني حامد لك شاكر . . . فلا ترد دعائي يا رب !

اللهم إني أسألك يا رحمن ويا رحيم أن ترأف بهذا الشاب وبأمه ، وأن تعافيه مما هو فيه ، وأن ترده لوالدته سالماً معافى . . . ولا تفجعها به !

وبين تنهدات العجوز تتسلل آهات ضعيفة إلى سمعه . . . إنه صوت نناس وهو يطلب ماء . . . ويسعفه الخال بماء قليل ، ويفتح عينيه ليرى نفسه مشدوداً إلى سريره لا يستطيع حراكاً . وعندما تقع عينه على خاله المسكين تتناثر العبرات من عينيه ، ويطمئن خاله أنه بخير .

ثم يقول الخال :

ـ أتعلم يا نناس كم اشتقت إلى حديثك الطيب العذب ! كم أتمنى أن أجلس إليك لتحدثني بما يستجد لديك . كان

بودي أن أفرح بك وأنا في عافيتي وعلى قوتي. . . قل لي يا ناس ، متى سنفرح بك ، ومن هي سعيدة الحظ التي ستكون من نصيبك إن شاء الله ؟

قال ناس في ضعف :

ـ حسناً يا خالي سأسرد لك قصة حبي. . . فهي كل ما في حياتي الآن ، وستعرف بعدها ماذا حدث لي ، ومن هي التي تنتظرني !

ويسرد حكايته باختصار مؤثر على خاله. . . حتى يأتي إلى نهايتها. . . في المستشفى !

وبصعوبة حرّك رأسه لينظر ما إذا كان خاله يتابعه أم لا فقال :

ـ هل سمعت يا خالي ؟ هل نمت يا خالي ؟ نحن لم نتفق على هذا ، ولعلك لم تسمع شيئاً مما قلته. . الحق معك يا خالي ، إنني قد أتعبتك معي .

وينام ناس نومة السقيم. . . بين النائم واليقظان. . ويتذكر أشياء فتتحول إلى أحلام. . . ثم يكبر. . . وتمضي. . . وتأتي

غيرها . . . على غير هدى . أحلام كثيرة . . . مضحكة . . . مبكية . . مزعجة مهزوزة . . . وكأنها مهزلة !

وفي الصباح يفتح بابه . . . وتدخل الأم والعم . . بينما تبقى كُلبهار على طرف الباب لتفاجىء ابن عمها . . بما لا يحلم به . . ولا شك أنه سينسى جراحه وآلامه كلها . وهل أصابه ما أصابه إلا لأجلها ؟ إذاً فهي دواؤه !

وتقف الأم عند رأس نناس ، وبينما يريد أن يتقلب من آلامه يشعر بيد حانية تمر على جبهته . ويفتح عينه لتلتقي بعيني الأم الحنون . . . فيبتسم لها . . . ليبين أنه قد تحسن كثيراً . فتقبله بين عينيه وتدعو له . . . بينما يتذكر نناس فيشير إلى فمه متأوهاً ويقول :

ـ الحمد لله ، لقد كنت بأشد الحاجة لوجودك الآن .

قالت في ودٍّ وحنان :

ـ ستراني بقربك دائماً يا ولدي . هل يؤلمك شيء ؟

قال في ألم :

ـ نعم يا أمي . إن ضرسي يؤلمني .

وتبتسم الأم ظانة أنه يمزح كعادته . . . . وتقول :

ـ عجباً يا ولدي . كل هذه الجروح لا تؤلمك ، إنما الذي يؤلمك هو ضرسك ! أرني يا ناس . . . افتح فمك . . . أسنانك كحبات اللؤلؤ . . . لا يوجد بينها شيء مما تقوله !

قال ناس مستغرباً :

ـ غير معقول ! أكان ذلك حلماً ؟! ظننته حقيقة يا أمي . لقد أتاني مخلوق لم يكن على هيئة البشر ، أدخل الرعب في قلبي . خيرني في خلع أي ضرس من أضراسي ، وسألته : أوَ لا بدّ من ذلك ؟ فقال : نعم إنه لا بد ! قلت له : إذا كان ولا بد فاخلع الذي يطيب لك منها . ومدّ كلاليبه إلى داخل فمي ، وخلع الضرس بكل قوته . وأحسست وكأن روحي خرجت معه ! قلت له : ليتك خلعت غيره ، فقد كنت بأمس الحاجة إليه ، قال : إنه كان أمراً مقضياً !

وتتبدّد مخاوف ناس من هذا الحلم ، فيسأل والدته عن أحوال أخواته . . فتطمئنه الأم قائلة :

ـ كلهن بخير يا ولدي ، ولا تهتم بهذا الحلم ، فهو من

أضغاث الأحلام . ولنأت إلى الأهم . فإنك لم تسألني عن ابنة عمك كُلبهار . . . هل نسيتها ؟!

ويعتريه الخوف عندما يسمع هذا الكلام فيقول :

ـ ماذا ؟ هل أصابها مكروه لا سمح الله ؟!

قالت وهي تبتسم :

ـ إنها بخير ، وتبلغك ألف تحية وسلام .

قال وكأن روحه عادت إليه :

ـ اللهم إن الحمد لك كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك . . وكيف أنساها يا أمي وهي تعيش في قلبي وجوارحي ؟ أنا معها وهي معي . اللهم اجمع بيننا بالمعروف .

وتسمع كُلبهار حديث الهوى العذب . . . فتتحرك الهوينى ، وتمشي متمايلة ، وتقترب من نناس ضاحكة باسمة . . .

خرجت إليه فلقة قمر ، أضاءت ظلام لياليه ! وقالت له في بسمة . . . ودلال :

ـ أرجو أن تكون بخير يا ابن عمي . قلبي معك . . . وجسمي كله جراح حتى تشفى .

قال وهو يتنفس بسرعة :

ـ كُلبهار ؟! أأنت هنا ؟ غير معقول ! أنا في حلم ! أكيد إنني في حلم .

قالت في صوت نديّ : ـ ولم هذه التأويلات يا ناس ؟ لقد قرر والدي أن يزورك فطلبتُ منه صحبته فوافق . . ألسنا أهلاً ! ومن واجبنا أن نتزاور ونتعاون ، وبخاصة في الظروف الصعبة ؟ إننا بانتظار شفائك يا ناس . . وليس هذا الكلام جبراً لخاطرك كما يبدو وأنت ترقد على السرير . . . بل أقوله من كل قلبي . . . وعازمة عليه إن شاء الله !

ويتعجب ناس من كلام كُلبهار وصراحتها . كما ينظر باستحياء إلى عمه الذي لا يرى منه تبرماً يذكر . . .

يا رب . . . هل هو الفرج بعد الصبر . . . .

والفرح بعد العذاب ؟

ثم يقول لها بصوت هادىء وهو يغضُّ طرفه عنها :

ـ أتتكلمين بهذا أمام عمي يا كُلبهار ؟

ويتدخل العم بقوله :

ـ نعم يا ابني نناس ، لقد أخطأت في حقكما .

يتعجب نناس ويقول في نفسه :

سبحان مغير الأحوال . . . اللهم أنت الهادي . . . وقلوب العباد بين أصبعين من أصابعك . . . ثبت قلوبنا على الحق يا رب .

ويلتفت إلى خاله لقمان وينادي :

ـ خالي . . . خالي .

وكأن هيلانة تنتبه لهذا الاسم من جديد . . . فهو أخوها الذي عوّض نناس بعنايته واهتمامه عن حنانها أثناء غيابها . لقد شغلت عنه في غمرة فرحها بابنها ، وسرورها بما جرى من حديث :

كم هو حنون متواضع هذا الأخ العظيم . . تركنا نلتذّ بما حدث . . . وآثر هو أن يتكىء على كرسيه . . . وينام !

وينادیه نناس مرة أخرى :

ـ خالي . . . خالي .

وتتبعه الأم في النداء :

ـ أخي لقمان . . . أخي !

وبات مفهوماً أمر صمته للجميع ، وأدمعت عينا نناس الجريح وهو يقول :

ـ أماه . . . كنت أريد أن أريه ابنة عمي كلبهار . . . وأقول له : انظر يا خالي هذه هي السعيدة التي كنت تسأل عنها . ولكن واحزناه على خالي ، لقد تحقق ما رأيته في الحلم . إنه ضرسي الذي خُلع !

ويستسلم نناس للمرض من جديد مقهوراً . . . لقد اجتمع فيه جرح الجسم والقلب . خاله . . . الذي رأى منه كل عطف وخير . . . وذهب معه إلى أقدس بقاع الأرض . . حاجاً . . . يتحامل على نفسه ويترك سريره هو الآخر . . ويبقى أياماً إلى جنبه . يعتني به ويبكي عليه ، ويدعو له . . . ويموت عنده . . . دون أن يشعر ؟ آه آه يا خالي . . . أما كان يكفي

ما أنا فيه ؟ لِمَ أحرقت قلبي هكذا ؟ وما الحكمة في سفرك اليوم ؟

وتجمد كُلبهار في مكانها وتعتريها دهشة وذهول ، وتقول وكأنها تخاطب نفسها :

ـ سبحان الله ! أمور غريبة تحدث في هذه الدنيا لا نعرف لها تفسيراً . . .

المستشفى . . . وموافقة أبي . . ثم حضوري هنا واستئناس ناس بي وتماثله للشفاء . وبالمقابل وفاة الخال لقمان . . . في غمرة ما نحن فيه . . اللهم لطفك !

وتنتحب هيلانة المسكينة باكية وتقول :

ـ كذبتني أحلامي . . وخانتني آمالي . . . قصدت فلذة كبدي حتى أبرد حرارة فؤادي ، فكانت صدمتي بوفاة أخي لقمان . قل لي يا خليل ، وأنت يا ابنتي كُلبهار : ماذا أفعل ؟ انظرا إنهما اثنان . . . . أغلى مَنْ على الأرض على قلبي ! شقيقي الوحيد . . . ومهجة فؤادي الوحيد : ميت وجريح ! أهذا هو قدر مسكينة مثلي ؟ ترى إلى أي مكان أرمي بنفسي ؟

وكيف أعيش ؟ أريد أن أفرَّ من حاضري هذا إلى عالم النسيان . . إلى حيث الجنون . . . أتمنى أن أفقد عقلي حتى لا أحس بما يدور حولي وبما يجري لأعز ما عندي . هنيئاً للناس الذين يتمتعون بأبصارهم ويفرحون بقلوبهم فيرون الحياة بهية جميلة ، وهنيئاً لعيني هيلانة اللتين أصبحتا منبعاً للدموع ، وهنيئاً لقلبها الكبير الذي أصبح مستودعاً للهموم وملجأ للمصائب !

ويتدخل العم خليل ويحاول أن يخفف من هول الصدمة عليها :

ـ هوني عليك يا أم نناس . . ولا تزيدي من حرقة القلب ، إنه قضاء الله وقدره . . . يكفينا ما بنا الآن . . يجب أن نتصرف لنقل المرحوم لقمان !

ويقوم خليل بمساعدة بعض أهل الخير بدفن الجثة !

وليت الأحزان والهموم كانت تدفن كما يدفن الإنسان . . . إذاً لهان الأمر . . . ولكن هيهات لقلب هيلانة ونناس أن يعرفا للراحة طعماً .

وتبقى هيلانة محتارة في أمرها : أتبقى إلى جانب نناس المريض أم تعود إلى بناتها في القرية ؟ ويغلب عليها ما ترى من وجع نناس ، وتختار البقاء عند ولدها الجريح السقيم . وتبقى بناتها في بيت خليل ، وتظل هي في المستشفى .

ويشتد المرض على نناس من جديد ، ويصبح نهماً لآلام جروح مقروحة . . إضافة إلى ما جرح في قلبه من صدمة وفاة خاله . فقد هزت كيانه وشتت أحلامه . . ومرّ بانواع العذاب النفسي .

أما هيلانة فقد بدأت تفكر بشيء آخر . . لقد صرفت على نناس كل ما كان في جعبتها من نقود ، وكل ما كانت قد حصلت عليه من إنتاج محصول الأرض . . . وبقيت أياماً تنتظر نناس لتتكلم معه وتقول له عما ستفعله .

وفاتحته بالأمر !

لكن نناس شدّ من عزمها وطمأنها بقوله :

ـ لا تجزعي يا أمي ، غداً إن شاء الله سأعود إلى صحتي وشبابي . . . إنها جروح بسيطة ، وستذهب مع الزمن .

قالت الأم متنهدة :

ـ نعم يا ولدي ، ستذهب مع الزمن !

وقال لها ناس :

ـ أمي ، قولي لصبري . .

وقبل أن يكمل . . . يدخل صبري ، ويقبل صديق عمره ، بكل الحب والحرارة ويقول :

ـ قل ما بدا لك يا عزيزي ، فأنا رهن إشارتك ، فقط أريدك أن ترتاح وتخفف من همومك ، وتعود إلينا مُعافى ، نألف بوجودك معنا ، ونتمتع بأحاديثك الشيقة .

قال ناس :

ـ إن شاء الله يا صبري عن قريب . ولكنني الآن بحاجة إلى بعض النقود ، اذهب إلى القرية وبع قطعة من الأرض لمن كان . . .

قال صبري :

ـ حسناً ، أنا عائد كي أتدبر الأمر ، هل تريد شيئاً آخر ؟

قال وعينه في عيني صديقه وكأنه لا يريد أن يفارقه :

ـ طمئن أخواتي وبيت عمي وأصدقائي عن صحتي . . . وسأعود قريباً إن شاء الله .

ويتصرف صبري في الأمر ، ثم يعود إلى المستشفى ليقدم له النقود . . . وبعدها بأسبوع . . يشفى نناس من جروحه ، ويعود إلى القرية مع أمه . . صحيحاً معافى ، ويعود إلى الأرض . . ويقف طويلاً أمام تلك القطعة التي طلب من صبري أن يبيعها . . . ويعيد ذكرياته مع أبيه فيها . . . وعندما تمرّ أيام ولا يرى من يتردد إليها . . . يسأل صبري :

ـ لمن بعت قطعة الأرض ؟

فقال صديقه في ابتسامة عريضة :

ـ وكيف تريدني أن أبيع قطعة أرض ابتلَّ ترابها بعرق أعز الناس إلي ؟ لا يا نناس ، ما كنت أبيع أرضك قط .

ويُقَبِّل نناس صديقه المحب ، ويشكره على صنيعه . . .

* * *

وتمضي أيام. . . وأشهر. . . ونناس يتردد إلى بيت عمه ، ويساعده في أعمال كثيرة. . فلا يرى منه سوى الترحاب والتقدير. . . ثم تشجعه العشرة الطيبة من عمه لطلب يد كُلبهار. . ويالسرعة موافقته !

وتقام الأفراح والليالي الملاح. . وتشارك القرية فرح القلبين العاشقين في عرس طويل بهيج. . . ويلتقي نناس بحبيبته كُلبهار. . . في ظل الزوجية. . . ويسرقان من الزمن أسعد اللحظات. . . وأجمل الأوقات ، في ليال لا تبخل بنور القمر ولألأة النجوم ، وربيع لا يمسك نسائم وروده الفواحة ، وتغاريد طيوره الجميلة. . . أيام ليس لها مثيل في عالم الخيال. . . فهل تبقى هكذا صافية. . . لا تكدرها بنات الدهر. . . وحوادث الزمان ؟

* * *

عندما قررت روسيا في نهاية حكمها القيصري شن الحرب على تركيا وخططت لهذا الهجوم الغادر ، كان من بين ما تعرضت له منقطة أرزروم ، ومنها قرية (الصخرة المثقوبة) ، وما حولها من القرى التي تحيط بها جبال (سيبان خلات) ، التي هي زينة جبال تركيا . . . مصدر لينابيع كثيرة . . . ومرعى ومرتع للأبقار والأغنام . . . كانت الوحوش والغزلان تختفي بين نباتاتها وشجيراتها الكثيفة . . . تلك الجبال الجميلة الخيرة . . . كانت ثلوجها تبقى من العام إلى العام ، وما كانت حرارة شمس الصيف تلحق أن تذيب تلك الثلوج حتى يتغير الجو لصالحها . . . فتبقى جامدة حتى يتراكم عليها ثلج الشتاء المقبل . . . نعم كانت تلك الجبال أماناً . . وملاذاً . . . حتى للوحوش البرية . . لكنها فجعت بوحوش بشرية دنست تلك الأراضي . . . فأصبحت ثمارها تشكو مناولة أيد دخيلة . . . قاسية ، وأعشابها تشكو من وطأة أرجل ثقيلة . . غريبة ! أناس لا يعرفون معنى للرحمة . . . والإنسانية . . . قلوب قاسية . . لا تعرف الله . . ناقمة على أهلها المسلمين . . . ودينهم الإسلام !

ووصلوا إلى قرية نناس (الصخرة المثقوبة) . . .

وكان على الهضبة المشرفة على القرية بعض القوات التركية ، ومدافع قديمة . . . وكان بين ذلك المعسكر واحد من أهل القرية ذاتها ، وعندما جهز المدفع ليرمي به الغزاة ، منعه الضابط المسؤول وقال له :

ـ لا فائدة مما ستفعله . . . لقد انتهينا وحوصرنا من كل الجهات !

وعاد الضابط إلى مخبئه ، وبقي الجندي خلف المدفع . . وهو في أوج غضبه وانفعاله . . . كيف يسكت وهو يرى بأم عينه ما يحلُّ بأهل قريته ؟ ويطلق النار بالمدفعية . . . فيقتل من الجنود الروس ما يقتل ، وسائرهم ينبطح على الأرض ويختبىء وراء الصخور في الوديان المجاورة . عاد إليه الضابط ثانية شاهراً عليه المسدس قائلاً له :

ـ باستطاعتي أن أقتلك الآن ، لأنك خالفت أوامري ، ولكن سأتركك . . . لنموت . . . أو نؤسر معاً !

عاد الجنود الروس يتسللون إلى القرية . . ودخلوا بين

النساء والأطفال والعجائز. . . بين الحيوانات والأشجار والبيوت. . . وبدؤوا يحرقون ويدمرون وينهبون ويقتلون. . . ويمزقون بطون الحوامل ! ويفعلون الأفعال المنكرة التي تتعالى عنها النفوس المستقيمة ، واستطاع بعض أهل القرية أن يهرب منها قبل أن تُحاصر تماماً. . . وكان من بينهم نناس ووالدته ، وثلاث من أخواته. . وكانت زوجته كُلبهار وشقيقته سوزان في زيارة أهلها. . فكانتا من المحاصرات اللواتي بقين داخل القرية .

أما ذلك العسكري المسكين ، الرابض على الهضبة المشرفة على القرية ، فقد كان يرى ما يفعله الجنود الذئاب ، دون أن يستطيع مغادرة موقعه بأمر من ضابطه .

وبقي على رأس التل ، وهو ينظر إلى البيوت كيف تحرق ، وإلى الشيوخ والنساء والأولاد كيف يقتلون ، وإلى الأبقار والحيوانات كيف تضرب بالفؤوس على ظهورها . وأصبح يبكي ويذرف الدموع على نفسه وعلى أصدقائه الجنود. . . فقد حدد طعامهم إلى أدنى ما تبقى به النفس

حية. . . لأنهم لا يستطيعون جلب الطعام ، فكانوا أحياناً يضطرون للتعدي على علف الحيوانات التي كانت تجر المدافع ، فيأكلون منها ما يسد جوعتهم. . . ولولا العين القريبة منهم. . . لماتوا عطشاً !

وبعد يومين فقط من الاحتلال. . . لاحظ ذلك الجندي توقف الجنود عن القتل والتخريب. . . وكأن حركتهم قد شلّت ! لقد أتاهم أمر معاكس من القيادة العليا بالانسحاب الكامل. . والسبب هو قيام الشيوعين بالثورة على القيصر ! وتم الانسحاب الكلي للجيش الروسي ، بعد أن بعث داء منهم وفيهم !

وعاد الذين هربوا إلى ديارهم ، وغدا كل واحد منهم يتفقد أهله وذويه. . . وسمع ننّاس ورأى بأم عينه الذين قتلوا أو أحرقوا أو ديسوا. . . وكان من بينهم صديقه الودود صبري !

وبحث عن كُلبهار وشقيقته سوزان. . . فلم يرهما . وبينما كان ينتشل جثثاً من بين الأنقاض ، عثر على شقيقته سوزان !

سوزان عارية من ثيابها ، مضروبة بالفأس على صدرها

وفي عنقها ، ودم الشهادة قد كسا جسمها !

ويرمي نناس بثوبه على شقيقته ويغطي جسدها الذي ما عرف في الدنيا سوى الحشمة والعفاف ، ثم يحملها على يديه ويمشي بخطوات متعثرة نحو البيت ، كي يقدم الهدية التي تركها الجنود الروس للأمهات . . إلى أمه ! ويغمى على الأم من هول ما ترى . . . فيعالجها نناس بماء بارد . . ويذكرها أنه على عجلة من أمره . . وسيبحث عن كُلبهار من جديد . . . فلعلها . . ولعلها !

ويترك أمه في تلك الحالة ليبحث عنها . . .

وبعد مسح شامل للقرية وما حولها . . . لم يعثر على شيء ! وعاد إلى البيت . . . بلا قلب !

* * *

ذق ما أنت ذائق أيها الفتى . . . وتدحرج من حدائق الشوك إلى حقول الصبّار . وتنقّل من قيظ الصيف إلى زمهرير الشتاء . وعد من سعادة أحلامك إلى حقيقة أيامك . . أفق من غفلتك أيها البائس المسكين ، وانظر ماذا حلّ مرة أخرى بذلك القلب الرقيق الحزين ؟

قل إنه نار تتأجج ولا أراها تنطفىء !

قل إنه مكلوم وليس فيه مكان إلا قد أدمي !

قل إنه بات قِدْراً يغلي بما فيه . . . فينضح آلاماً وأسقاماً !

أماه !! إنني أشعر بحمل ثقيل ألقي على عاتقي . . . فماذا أفعل ؟ وبأية حيلة أتدبر أمري ؟ إنه قدري وقدرك ، ولا خلاص منه ولا مفرّ . ينبغي أن أقوم بواجبي !

وتفزع الأم وتنتفض !

لقد عرفت ما يرمي إليه ابنها ، فقالت له متوسلة :

ـ لا تكمل ، أرجوك يا ولدي لا تكمل . . . تكفيني مأساة سوزان . . . ارحم هذا القلب الضعيف ولا تختفي عن أنظاري . . حتى الأمل الذي أعيشه تريد أن تحرمني منه ؟

ارحمني يا ولدي . . ارحم قلباً تعلق بك منذ أن كنت في المهد . . ارحم فؤاداً ملتهباً مجروحاً . . ارحم امرأة فقدت زوجها وأخاها وابنتها . . ارأف بأرملة تعيش على الأمل . . . بوجودك عندها . يكفيني يا ولدي الأجيج الذي يزداد غليانه في قلبي . أرجوك يا حبيب قلبي لا تدعه يتعذب أكثر من ذلك ، واعلم يا بني أن المصائب التي مرت عليَّ ستهون كلها إذا وقفت بجانبي ، وسأنسى كل شيء إذا بقيت أمام عيني . إنك يا ولدي إذا رحلت عني فسأفقد ماء عيني بكاء عليك ، وسأبقى حزينة حتى يكتب لي الموت . . وكيف ستترك أختيك خاتونة وخانمة . . . ولمن ؟ وماذا سيكون مصيرهما من بعدك ؟ وإنني لا آمن ولا يطمئن قلبي إلا إليك وعليك !

ولكن نناس يرد عليها بقلب ممتلىء بالحزن والأسى :

ـ أماه ! كيف سأعيش بقية حياتي وابنة عمي مفقودة وهي على ذمتي ؟

ليتني يا أمي لقيتها مذبوحة إلى جانب سوزان ، كنت سأقول حينها بأن الحرب قد قتلت ما قتلت ، ولكن يا أمي

لا أثر لها في كل القرية ، إنني ما تركت شبراً فيها إلا وبحثت . . . دون فائدة ، إنها يا أمي عرضي الذي أهان به وأنا حي ، إنها شرفي الغالي الذي أشعر برجولتي ومروءتي في حفظه . إنها عرضي الذي أمرني الله بالذود عنه ، ورغبني رسوله في القتل دونه !

لا أستطيع أن أبقى في القرية ، ولن أرتاح أو أهدأ إلا حين أجدها أو ألقى أي أثر لها أو اسمع عنها خبراً صحيحاً !

سأبحث عنها في القرى المجاورة ، في هذه الجبال ، بين تلك الوديان ، سأسأل عنها كل الناس في تركيا ، سأبحث عنها في الكهوف ، سأسأل عنها الشجر والدروب . . والشمس والكواكب والنجوم . أسأل النساء والأولاد والأطفال ، سأسأل الفرسان والقرصان . . سأسأل البهائم . . . والخراب .

إن أملي بالله كبير يا أمي ، سأبقى أسأله أن يجمعني بها ويردها عليّ . . . إنه أكرم مسؤول . أعرف يا أمي أن ذلك يحزنك ويعذبك . ولكن هل يرضيك أن يبقى ابنك مهاناً بين الناس طوال عمره ؟ هل تريدين يا أمي أن يعيرني أهلي

وأصحابي طوال حياتي بأن زوجتي التي في ذمتي هي عند آخرين ؟ لا لا . . . إنني أعرف أن أمي لا ترضى ذلك لولدها . . أليس كذلك يا أمي . . ! قالت الأم باكية منتحبة :

ـ صدقت يا ولدي ، إنه لكذلك . أريدك أن تبقى رجلاً شهماً أبياً ، ولا يستطيع أحد أن ينالك بسوء . ولكن حذار أن تتأخر علي . باستطاعتي أن أنتظرك شهرين أو ثلاثة ، ولا أقول أكثر ، وسأبقى أثناءها أسيرة فراقك ، حزينة على بعدك ، وإذا مضت تلك المدة ولم تعد ، فاعلم أنه قد أصاب أمك سوء كبير . كان الله معك يا ولدي . أرجو الله أن يردك إلي قريباً ومعك زوجتك كُلبهار حتى أفرح بك من جديد .

وقام نناس وقد اصفرَّ لونه وارتعدت فرائصه وهو يقول :

ـ حسنا يا والدتي ، أستودعك الله الذي لا تضيع عنده ودائعه .

ويُقبِّل يدي والدته ، وشقيقتيه ، ويخرج بسرعة حتى لا يرى عيونهن الدامعة الذابلة ، ولا يسمع بكاءهن وعويلهن الذي يدمي القلوب .

وتستسلم الأم للقدر ، كما يستسلم المشرف على الموت للموت ، وتصبح من ساعة الفراق عليلة سقيمة ، لا يفارقها دمع ، ولا يصرفها عن تذكره صارف !

أما نناس ، فيتجه إلى حيث لا يدري ! ويبحث عن كُلبهار كالتائه المجنون ، في البيوت والقرى والمدن ، في الطرق والبساتين والجبال ، وهو يلاقي المتاعب الكثيرة ، ويشكو من الجوع والعطش والتعب والإرهاق . نال من الأذى ما لم ينله أحد . سار ماشياً حافياً دون أن يركب . طوى البراري وسهر الليالي دون أن يجلس إلى من يشكو إليه . . احتاج إلى المأوى والمال والثياب دون أن يمد يده إلى أحد ، اتخذ الأرض فراشاً لنومه ، والحجر الصلب وسادة لرأسه ، والسماء لحافاً لجسده ، وأبى أن يدخل تحت سقف ما دام لم يجتمع بابنة عمه وضالته المفقودة كُلبهار . كان يصعد قمم الجبال ويفتش المغاور والكهوف ، ويبحث وراء الصخور وهو ينادي بأعلى صوته :

كُلبهار . . كُلبهار . .

ويسكت برهة ثم يصيح ثانية :

أنا نناس ، وإن لم تصدقيني فهذه هي هدية زواجنا ، إنها المسبحة السوداء ذات الشواهد الفضية . هيا اظهري يا عزيزتي وردي على نناس المعذب .

ثم يقف ولا يسمع سوى صدى صوته الذي تعكسه الوديان العميقة المخيفة . . وبعدها تعود الأرض إلى صمتها . . . فلا يسمع سوى أصوات حيوانات هنا وهناك .

* * *

أما الأم المسكينة فقد كانت تعد الأيام بكل دقة . وتفكر بحال نناس وهو يقطع الأنهار والفيافي والوديان ، من جوع وعطش وآلام . ويمر الشهر الأول والثاني وحالها يزداد سوءاً . وعندما لم تر له أثراً حتى نهاية الشهر الثالث ، أخذت تراودها الشكوك والوساوس ، ولا تزيغ عيناها عن الطريق . . . تسهر الليالي على عتبة باب الدار وهي تنتظر عودة ولدها وزوجته دون أية فائدة . . . وتصبح كالمعتوهة أو المجنونة . تدور في أزقة القرية وتسأل عن ابنها بمن

تلتقي. . . تسأل الكبار كما تسأل الصغار .

أنا هيلانة والدة نناس ، إنه سافر ووعدني أن يعود بعد ثلاثة أشهر ولم يعد بعد. . . هل رأيتموه ؟ هل سمعتم عنه شيئاً ؟ هل لكم أن تأتوني بخبره ؟

ولكن لا جواب من أحد !! بل سكوت يعكس ألواناً من الأسى والندم والتأسف على تلك المرأة الطيبة المسكينة ، ويحاولون التخفيف عنها دون جدوى ، بل طلب بعض وجهاء القرية أن تأتي مع بناتها إلى بيت مجاور لهم للعناية بهن والإنفاق عليهن. . . إلا أنها لم ترض. . وبقيت في حالتها. . . تخاطب نفسها ، وتقلب كفيها متعجبة مستغربة .

ما بال الناس هذه الأيام ؟ ما الذي جرى لهم ؟ هل فقدوا عقولهم لماذا تخلوا عني وأنا بأمس الحاجة إليهم ؟ لماذا عندما أسألهم عن ابني لا يردون علي ؟ لماذا لا يحنّون علي ويطفؤون النار المؤججة في قلبي ؟ لماذا لا يرأفون بي ويدلونني على نناس ؟

نفد صبر هيلانة بعد أربعة أشهر من فراق نناس ، ولم يعد

يفارقها البكاء ، حتى عميت . . . ولم تعد ترى شيئاً . . . وقد أصبحت بلهاء . . . تقوم بحركات غريبة وتهذي بكلمات لا معنى لها .

وفي إحدى الليالي نهضت من فراشها بهدوء حتى لا تحس بها ابنتاها ، وعزمت على المضي للبحث عن نناس ، بعد أن فقدت الثقة بالناس . وتأملت خاتونة وخانمة وهما نائمتان ، ثم صرفت النظر عنهما ، تاركة إياهما للغد المجهول ، وعندما خطت خطوتين شعرت بثقل في طرف ثوبها . . . إنها خاتونة ، صغرى بناتها ، تعلقت بثوب أمها قائلة :

ـ ماذا ستفعلين يا أمي ؟

قالت في همس :

ـ سأذهب إلى نناس يا ابنتي . لقد اشتقت إليه ولم أعد أتحمل فراقه ، أريد أن أراه .

قالت الصغيرة في براءة الطفولة :

ـ سآتي معك يا أمي ، أنا أيضاً اشتقت إليه ، أريد أن أراه ليشتري لي ثوباً جديداً ويأخذني معه إلى البستان كما كان يفعل

كل مرة . ولكن أين هو يا أمي ؟ أما قلت إنه ضاع ولا أعرف مكانه ؟

قالت الأم وهي تهمس في أذنها :

ـ أعرف يا ابنتي أعرف ، وهل من المعقول أن لا تعرف الأم مكان ولدها ؟ هو قال لي بأنه في المكان الذي سأخذك إليه الآن ، كنت أمزح مع أهل القرية وأقول لهم لقد ضاع مني ناس ، حسناً يا ابنتي ، سآخذك معي لأنك تحبين ناس . . . انظري إلى خانمة كيف أنها غارقة في النوم ، إنها لا تحب ناس ، ولو كانت تحبه لقامت من نومها ورافقتنا . . . اتركيها وأسرعي !

وقامت الطفلة مسرعة وهي تقول :

ـ هيا بنا يا أمي !

وسارت الأم العمياء بعد منتصف الليل ، وابنتها متعلقة بطرف ثوبها ، تتحسس الطريق بعصا في يدها ، مع إرشادات ـ عند الضرورة ـ من الابنة التي أعياها المشي المستمر في مسافة قصيرة .

وبقيت الأم سائرة في جبال (سيبان خلات) دون أن تتخذ لها مساراً معيناً ، فخطواتها متعثرة ، وطريقها متعرج . . مثل أفكارها وهذيانها . . . ولم يكن يوقفها وعورة الطريق ولا كثافة الأشجار ، ولا عمق الوديان . . . ولا ليل ولا نهار . . . فالمهم عندها أن تمشي ! وتستيقظ القرية على صياح خانمة :

أين أمي . . . أين أمي ؟

ويجري البحث على قدم وساق في كل مكان . . في البيوت المهجورة والبساتين والطرقات ، وبين الجبال وعلى ضفاف الأنهار وداخل الكهوف . . . دون جدوى ، ثم امتد البحث إلى القرية المجاورة . . . ولمدة أسبوع ، دون أن يعثر على أي أثر لهما !

ولم يبق من عائلة الشيخ محمد سوى جيهان المتزوجة من ابنة الملا سيف الدين ، وخانمة البالغة من العمر أربعة عشر عاماً .

ويضمها عمها خليل والد كُلبهار إلى أسرته ، وبعد أشهر يزوجها من ابنه مصطفى .

ما كانت خانمة متعلمة أمور تدبير البيت ، من طبخ وغسيل وترتيب ، فقد كانت أمها تدللها كثيراً ، وتعمل بدلاً عنها وعن أخواتها . . . كل شيء ! ورضيت زوجة لابن عمها غصباً عنها . . . وتابعت حياتها معهم في البيت ، تعلمها زوجة عمها قمرية واجباتها . وقد كانت عطوفاً بها حنوناً عليها ، ولا تثقل عليها بطلبات البيت ، ثم تألفت مع الحياة الجديدة ، وبدأ انشغالها بواجباتها ينسيها بعض همومها . . . إلى أن انتاب زوجة عمها مرض مفاجيء !

* * *

نناس ؟!

إنه ينتقل بين المدن والقرى ، يترك جبلاً ويأوي إلى آخر ، يقطع درباً فتستقبله دروب ، ويقطع نهراً فينتظره آخر . . .

ويرى في رحلته العصيبة أسباب الموت . . . ولا يموت ! يصطدم بالحيوانات المفترسة ، والزواحف السامة ، ينام بين الصخور عند النمل ، وعلى الأشجار بين الطيور ، وعند الشواطيء مع السلاحف والسرطانات . . . ويوقفه قطاع الطرق

عدة مرات... بين قمم الجبال ، وعلى طرف الكهوف ، وأبواب المغارات ! ويلقى منهم العنت والإكراه ، ويخاف منهم أكثر مما يخاف من الذئاب والضباع ! يفتشونه في كل مرة فلا يرون معه نقوداً أو ذهباً ، فيتهمونه بالتجسس عليهم... ويحجزونه... ثم يطلقون سراحه عندما يعلمون أنه عاشق... ولهان !

وأكثر ما آلمه عندما اغتصبوا منه مسبحته التي أهداها له يوم عرسه ابنة عمه كُلبهار ! ولم يحصل عليها منهم إلا بعد جهد جهيد ، بعد أن بين أسباب تشبثه بها !

وكان يفرح أحياناً عندما يتأثر بعضهم بقصته ، فينصحهم ويعظهم بالتي هي أحسن ، فيرى دموعهم تنهمر ، وقلوبهم تتأثر ، فيتوبون... ويتركون أوكارهم.. إلى بيوتهم وأهلهم.. وإلى الرزق الحلال !

ويكمل نناس طريقه إلى حيث لا يدري ! إلى حيث تحمله قدماه ويسوقه إليه قدره ! وقد عزم ألا يعود إلا ومعه ابنة عمه !

لا يا كُلبهار... لا... إنني أحس بأنك لا تزالين على قيد

الحياة ، إنك تعيشين . . . وسألتقي بك . . . الأيام التي عشتها معك لم تنته بعد !

خمسة وأربعون يوماً كانت قليلة جداً . . . لم أرتو من حبك . . . من عينيك الجميلتين . . . من دلالك . . وجمالك . . . ستعودين إلى القرية إن شاء الله !

أكثر من سنة وهو يبحث عنها . . . .

وكان قد اقترب من الحدود الروسية ، فعزم على دخولها ، والبحث عنها هناك . . . فقد يكون بعض الجنود والضباط الأوغاد قد هربوا بها إلى هناك !

واستطاع أن يدخل الأراضي الروسية ويبحث فيها مدة غير يسيرة . . . حتى ساءت حاله ، وهزل جسمه ، ورثّت ثيابه ، وطال شعره . . وغدا ذا هيئة مخيفة !

وبينما هو في تلك الحال ، وعلى أحد الجبال ، والشمس في كبد السماء تبعث بلهيبها إلى جسمه الضعيف ، ولا يكاد يستطيع حراكاً من شدة الجوع ، حتى أيقن بالهلاك ، نظر أسفل الوادي ، فإذا بقصر منيف تحيط به حديقة فيها أشجار

كثيرة ! ويتحامل على نفسه ، فيهبط قاصداً ذلك البيت ، وهو يعلم أنه بين خيارين : فإما أن يكشف سره ويقتل أو يسجن ! وإما أن يُكرم فيُرحم ويُستر ! ودخل البستان ، وروى ظمأه من ماء كان هناك ، ثم ألقى بجسمه النحيف تحت ظل شجرة كبيرة . . . كانت في وسط الحديقة ! وراح في نوع عميق ! ولم يفق إلا وقد اقترب وقت الغروب ، ثم قام وتوضأ ، وصلى العصر . . . ودعا بدعوات . . . ثم لاحظ خروج فتاة من القصر . . . في أبهى زينتها . . يتبعها كلب روسي ناعم جميل . وكلما اقتربت منه الفتاة ، شعر ببرودة تعيد إليه روحه ونشاطه :

ـ رباه !! من هذه ؟! أهي كُلبهار ؟! هل هي حقاً ؟! الحمد لله ، إنها سالمة معافى . . تعالي يا عزيزتي واقتربي ، فإن الفرحة شلّت حركتي . اقتربي حتى أضمك إلى صدري وآخذك في الأحضان بعد عشرين شهراً من الفراق والعذاب ! لم لا تتحركين ؟! لم لا تردين علي ؟ لعلك تألمت لما لاقيته من أجلك ! لا يا عزيزتي ، كنت مصمماً أن أبحث عنك العمر كله حتى ألقاك . . خرجت من البيت يا كُلبهار ، وأخذت عهداً

علـى نفسـي أن لا أعـود إلـى الـديـار إلا وأنـت معـي . . .
الحمد لله . . . إنه حقق مطلبي وجمعني بحبيبتي . . . هيا
ابتسمي يا كُلبهار وانسي كل ما مضى . . . هيا . . دعيني أرى
البسمة على ثغرك بعد الغياب الطويل . . . لعلك لا تصدقين
بأنني نناس !! صدقيني يا كُلبهار أنني ابن عمك نناس . . .
وهذه هي المسبحة التي أهديتنيها يوم الزفاف . . . ولكن لم
أنت مزيونة بهذه الحلي الكثيرة وعليك هذا الثوب الجميل
الشفاف ؟ هل أنت في عزٍّ ورفاهية ؟ أيعقل أن تكوني قد
رضيت بما جرى لك واستسلمت للشيطان وأنا أكون بائساً شقياً
ذليلاً ؟ معك حق يا كُلبهار . . . إن على الرجل أن يتعب
ويشقى ، وهل كان باستطاعتك أن تشقي وتتعبي وتتشردي
مثلي ؟! لا . . لا . . . إنه ليس باستطاعة امرأة على وجه
الأرض أن تفعل ما فعلته . . معك حق يا عزيزتي . . ولكن
قولي لي ، أين هو عقد العقيق الذي أهديتكه يوم عرسنا ،
والذي كنت تتقلدينه دائماً ؟ هل استبدلته بعقد الألماس الذي
يتلألأ في عنقك ؟ لا . . لا . . لا بدّ أنك قد أخفيته عن الأنظار
حتى لا يغتصبه منك أحد !

وبقي نناس غارقاً في النظر إلى وجهها . . مبحراً في سواد عينها ، غائراً في حلكة شعرها . . . شارداً في زينتها . . . مستغرباً من نظراتها ! لكن الكلب الصغير قطع عليه أحلامه عندما اقترب منه . . . وابتعد عنه نناس لنجاسته . . وتقع عيناه على الطوق الذي في عنقه . . . فإذا هو عقد العقيق ! ثم تقطع هي أيضاً سلسلة أفكاره ، وتقترب منه قائله بالروسية :

ـ اذهب من هنا أيها الشحاد وانفد بريشك ، وإلا سأدعهم يقطعونك إرباً إرباً . . . اذهب من هنا ، فلا أعرفك ولا تعرفني .

وتنقبض أسارير نناس . ويفهم أنها تطرده ، وتقسو عليه في الكلام ! فيقول لها في أسف وغم :

ـ كُلبهار ! أنا لا أفهم الروسية ، تكلمي بلغتك الكردية ! أنسيت لغة آبائك وأجدادك بهذه السرعة ؟ هل بعت نفسك وتراثك وأهلك ؟ ليس الغريب أن ينكر الإنسان أخاه الإنسان . . . ولكن الغريب أن ينكر الإنسان أصله . . . فما الذي جرى لك يا ترى ؟!

ولكنها تمرّ من جانبه ، وتركله بقدمها بقوة. . . ويقع المسكين لضعفه. . ثم تكمل هي مسيرتها في التجول داخل البستان. . . وهي عابسة. . . ثم تعود مسرعة إلى قصرها !

ويدخل نناس في عالم عجيب من الأخيلة. . . والأسئله التي لا تنتهي :

ـ رباه !! ما الذي غيرها بهذا الشكل ؟! لم عاملتني هذه المعاملة ؟

أهذا هو جزائي ؟ أما عرفت أنني شقيت من أجلها ؟ ما كنت أصدق أن أراها. . . لكن ليتني لم أرها. . . هل غرورها أدى بها إلى ذلك ؟ آه. . . ليتني أعلم ما الذي غيرها. . . أهو المال أم القصر أم الحلي ؟ ولكن هل هذا كله يقابل العرض والأصل والوطن ؟ لا. . لا. . إنها أصيبت في عقلها ، لا بد أنه جرى لها شيء فغيرها كل هذا التغيير ، لا بد لوجود سر في الأمر. . لا بد من حقيقة خافية علي. . . ينبغي أن أعرفها. . .

ويصل الضابط (غاري) في وقت متأخر من الليل ! فتسأله (زوجته) :

ـ لم هذا التأخير كله ؟ أين كنت حتى الآن ؟

قال في استغراب :

ـ هل حصل شيء يا كُلبهار ؟ هل اعتدى عليك أحد ؟

قالت بامتعاض :

ـ لا لم يصبني شيء ، ولكن مصيبة ستقع علي وعليك !

قال :

ـ أحق ما تقولين ؟ وما هي هذه المصيبة ؟

قالت :

ـ المصيبة تحت الشجرة الكبيرة. . . ابن عمي ننـاس هناك ، الحقه وتدبر أمره وإلا فإنه سيقتلني ويقتلك ، ولو عرف أنني قبلتك زوجاً لي مع أنني زوجته ، لقتلنا ورمى بلحمنا للكلاب. . هل فهمت ؟

قال في خوف ودهشة :

ـ ولم كل هذا ؟

قالت بعصبية وهي تصرخ في وجهه :

ـ هيا أسرع ولا تتباطأ . . . أتظن أن لا عرض عندهم ولا مروءة ؟ إن باستطاعتهم أن يحاربوا دولة بأكملها إذا تعُدّي على امرأة منهم . . . وهذا ما حدث في تاريخهم . . إنهم لا يسكتون أبداً على العرض ، وفي عقيدتهم أن من قتل دون عرضه فهو شهيد . . . يدخل الجنة . . . وليس الأمر كما هو عندكم ، حيث تفعل المرأة بنفسها ومع غيرها ما تشاء . . . دون حياء أو خجل . دعنا من هذا الآن ، الحقه قبل أن يذهب ، اقتله قبل أن يقتلنا .

ويتأكد غاري من سلامة مسدسه ، ثم يتناول من البيت حبلاً غليظاً ، ويتجه نحو الشجرة !

ويحتار نناس في أمره :

يا رب ! ماذا أفعل ؟ كيف أفسِّر الأمور ؟ ما الذي أتى بكُلبهار إلى هذه الديار ؟ وهل يشاركها أحد في هذا القصر ؟ ترى هل ستخبر أحداً عني ؟ لا . . . لا أظن . وهل يعقل أن

تفرط بابن عمها بهذه السهولة ؟ ولو أنها أرادت أن تفعل شيئاً لفعلت ، فإن الوقت يقارب منتصف الليل . . . ومن يدري ، فلعلها تنتظرني في القصر كي أذهب إليها ، ونعود سوية إلى قريتنا !

وبينما يستعد للنهوض ، يفاجئة الضابط غاري بمسدسه :

ـ ارفع يديك . . . إياك أن تتحرك . . . وإلا قتلتك !

ويجمد ناس في مكانه . . . لقد وقعت الواقعة ! انتهى أمرك يا ناس . . هذه هي منيتك . . . أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله .

ويقترت غاري من ناس ويفتشه . . . فلا يرى معه سوى المسبحة . . يسنده إلى الشجرة ويربطه بساقها الغليظ ، ويلف الحبل عليه . . . من عنقه وإلى أسفل قدميه ، ويحكم الرباط . . . ثم يعود !

ولم يبد ناس حراكاً . . فلا حول فيه ولا قوة . . . لقد أمسى ضعيفاً . . . أبراه الجوع والعطش ، وأسقمته الأسفار الطويلة الشاقة ، ونحلته الذكريات المرة العصيبة . . . وهزله

الشوق إلى كُلبهار. . . وها هو الآن ينال الجزاء ويدفع الحساب !! إنه خير جزاء يا كُلبهار. . . أيتها الفتاة الأصيلة. . . نعم هكذا يُجزىٰ الحبيب. . . إنه ليس ذنبك. . . هو ذنب التحرر الذي قرأته في عينيك ورأيته في ثيابك ! ومن يستطيع أن يقول لا ؟ إن التي تفرط في عرضها ليس غريباً أن تبيع أهلها وعقيدتها وأصلها. . . وحتى وطنها ! تباً لك أيتها الشقية. . . تباً. . أما علمت أنه يحرم في ديننا أن تقترن المسلمة بالكافر ، وأن زواجك منه باطل شرعاً لأنك ما زلت زوجتي ، وأن العلاقة بينكما علاقة فحش وزنى ؟! كيف رضيت أن ينكحك كافر لا دين له ولا أمانة ؟ هو عدو لي ولك ولكل واحد مثلنا ؟ آه لو كنت أعرف كيف حصل ذلك ؟ إنك وأمثالك دائماً مستعدون للتضحية بأغلى ما عندهم لأجل شيء تافه حقير زائل ، أو للوصول إلى أمنية رخيصة دنيئة. . . والمهم أن تنالوا ما تشتهون. . . وليكن بعدها ما يكون ! وها أنت قد رخص عندك الغالي ، وضحيت بابن عمك. . . الذي يمثل الأهل والأصل والعقيدة والوطن .

والآن فهمت كل شيء.. لقد بعثت عشيقك غاري كي يقتلني..

* * *

ويعود غاري إلى الغرفة وهو ينشد أغنية انتصار... فتقول له كُلبهار :

ـ هل قتلته ؟

قال في ثقة :

ـ بل ربطته بالشجرة ربطاً محكماً .

قالت مستغربة :

ـ لم لم تقتله وتنهي حياته حتى ننام ونحن مرتاحو البال ؟

قال :

ـ لا.. بل فعلت به ذلك ليموت ألف موتة !

قالت وهي تضحك :

ـ لقد كان شكله يوحي بأنه في عداد الأموات... ولا شك أنه الآن يقترب منهم حثيثاً ! حسناً... هيا بنا إلى دنيا

الأحـلام. . . إلـى النسيـان. . . إلـى اللـذة. . إلـى حيـث النعيـم. . . إلـى البسـط والسـرور. . إلـى الكـأس والفـراش الوثير !

قال وهو يضمّها إليه :

ـ الحق معك يا كُلبهار. . . لك أن تفرحي وترقصي طرباً. . . ولا تضيعي فرصة من فرص اللذة والنعيم. . . لقد زال الخطر الذي كنت تتوجسين منه خوفاً !

وراحو في ليلة حمراء إلى ما بعد منتصف الليل ، حتى سكتوا عن الكلام المباح . واستسلموا لنوم عميق. . . عميق !

عندها تتحرك (ايڤلين) ، وبيدها سكينتان حادتان ، وتتجه نحو الشجرة ، ثم تقطع الحبل الملفوف على نناس. .

ولكن المسكين يقع من طوله على الأرض. . . فقد كان يتنفس بصعوبة بالغة لما ضيق الربط على صدره . وتنتشله ايڤلين من الأرض ، وتوقفه على قدميه ، لكنه يقع ثانية دون حـراك ! وتقـوم بإسعـافـات أوليـة لـه حتـى تنشطـت دروتـه الدموية ، ثم تقدم له بعض فواكه البستان ، وقليلاً من

الماء . . . حتى شعر ببعض النشاط الذي يمكنه من الوقوف على رجليه . . . ثم حدثته إيڤلين . . . بالتركية :

ـ يا نناس ، بهذه السكينة اقتل ابنة عمك التي خانتك وعذبتك . وبالسكينة الثانية سأقتل زوجي غاري الذي أهملني تماماً بعد أن تزوج كُلبهار . . . كانا يهيناننى في اليوم الواحد مائة مرة وأنا اصبر وأتحمل . . . إن غاري ما تركني في هذا القصر إلا لأجل خدمته وخدمة كُلبهار . أصبحت عبدة حقيرة ذليلة ! نعم أيها الشاب . . . ولكن بقائي كان لحكمة خفية ما كنت أعلمها . . وها هي ذي ظهرت . . . لينال كل جزاءه . لِم لا تتحرك يا نناس ؟ هيا بنا . . . إنهما في نوم ثقيل بعد سهرة حمراء متأخرة لا يحسون بشيء . . ماذا قلت ؟ هل أنت خائف ! . . لا تخف . . . لا تخف . . . دعنا نشف غليلنا ونأخذ بثأرنا . . . لا بد أنك ما زلت تحب ابنة عمك ولا تملك تلك القدرة التي تدفعك إلى قتلها . أما هي ، فإن حبها قد انتهى منذ زمن بعيد . . . إن حبها انتهى بعد أن قلدت الكلب بقلادة العقيق . . . إن حبها انتهى بعد أن أسقطت جنينها الذي

حملته منك . لا أستطيع أن أقول لك كل شيء في هذا المقام يا ناس. . . .

إن كُلبهار اختارت بنفسها أن تأتي مع غاري ، عندما أبدى إعجابه بجمالها ونضارتها. . . ووعدها أن يسكنها قصراً جميلاً ، وأن يلبي جميع طلباتها. . .

لقد سمعت بأذنيَّ هاتين كُلبهار وهي تقول : إنها أحبتك قبل الزواج فقط !

أحبتك لأنها رأتك رجلاً شجاعاً وسيماً يتناقل أخبارك أهل القرية كلها. . . وكلهم يحبونك .

وأحبتك لأنك كنت لها كالعبد الذليل. . . لا تخالفها رأياً ، وليست لديك تلك الشجاعة لتقول لها (لا) في أي شيء تطلبه منك !

كانت تسيطر على البيت كله. . . وتؤذي أمك وأخواتك أثناء غيابك. . . وقد أخبرتني أن أمك ما كانت تردُّ لها طلباً. . . وما كانت تستطيع أن تأمرها للقيام بعمل ولو كان بسيطاً. . وما كانت تخبرك بهذا أمك حتى لا تتعكر

سعادتكما. . . أية سعادة لك مع مغرورة جاحدة أهانت والدتك وأذلّت أخواتك الصغيرات. . . ثم باعت كرامتها وعرضها ! ليتك رأيتها ليلة الأحد في مجلس الضابط غاري وهي تحتسي الخمر وتعطي بسماتها لهذا وذاك. . . وتصبّ لهم الكأس تلو الأخرى ، وتمشي بينهم نصف عارية. . . وتترنح في غنج وتمايل !!

انْسَها يا نناس. . إنها تكرهك. . إن الذي اسمه نناس قد خرج من حياتها يوم أن خرجت من بيتك. . . إنها نسيتك فانْسَها. . .

لم يبق في حياتها سوى اتباع هواها. . . والجري وراء شهواتها. . .

ما بالك واجماً ساكتاً ؟! يظهر أنه لا فائدة من كلامي ، وقلبك لا يطاوعك لقتل ابنة عمك الخائنة. . . إذاً دعني أنا أقتل كُلبهار ، واقتل أنت غاري. . . هه. . ماذا قلت ؟ أليس هذا أقرب إلى قلبك ؟

ويهز نناس رأسه بالموافقة ، وينهض بسرعة مع ايڤلين إلى

القصر ، وتفتح عليهما باب الغرفة . . . وعندما تريد أن تنقضَّ على كُلبهار لتقتلها ، يمسكها نناس من ذراعها ، وتأبى مروءته وشجاعته وثقته بنفسه قتل أي منهما وهو نائم . . . وبدأ ينكش برجله غاري ليوقظه . ولكن إيڤلين تهمس في أذنه :

ـ ماذا ستفعل ؟ أتريد أن يقتلونا ؟! أأنت مجنون ؟

لكن نناس يأخذ بساعد إيڤلين ويقذفها جانباً ، ويعود من جديد يركل غاري وكُلبهار حتى استيقظا ، وقاما من فراشهما . . . وعندما يرى نناس أمامه يركبه الهلع ، ويرفع طرف الفراش ليأخذ مسدسه . . . لكن نناس كان أسرع في توجيه السكين إلى صدره . . . فارتمى أرضاً . . . وهو يشخر كالبعير !

أما كُلبهار ، فقد عادت تتكلم بلغتها قائلة :

ـ إنني ما عرفتك يا ابن عمي نناس إلا رجلاً شجاعاً مخلصاً . . . لقد طال انتظاري يا حبيبي . . .

ولم يدعها نناس تكمل كلماتها حتى انقضَّ عليها هي الثانية . . . وغرز السكين في قلبها قائلاً :

ـ خذيها أيتها الخائنة . . . وانعمي بعدها بما تريدين !

ثم أخذ بيد إيڤلين . . . تاركاً إياهما يتخبطان في دمائهما . . . واتجها نحو الكوخ ، وأخرجا فرسين ، وامتطياهما ، وانطلقا !

أول عربة عبرت النفق كان عام ١٩٢٩

بينما كانت قمرية قد جهزت العجين لتخبزه ، انتابها مرض مفاجىء ألزمها الفراش ، وعاد خليل من العمل متعباً ، ورأى زوجته مرتمية في الفراش فنادى بصوت عال :

ـ يا خانمة .

أجابت خانمة في هلع :

ـ نعم يا عم .

قال في غضب :

ـ أحضري لي الغداء .

قالت بصوت خافت :

ـ لا يوجد عندنا خبز يا عمي !

قال عمها في عصبية زائدة :

ـ وماذا تنتظرين . . ؟ هل أذهب أنا إلى التنور وأخبز عنك ؟ هيا أسرعي إلى التنور وألحقيني برغيف خبز .

وتحني رأسها بالطاعة . . . هذه الفتاة المتواضعة المدللة ، المكسورة الجناح ، التي تربت في ظل دلال هيلانة

وننا س . . . الرقيقة في كل شيء ! كانت تتلقى كلمات قاسية من عمها وكأنها خناجر تغرز في قلبها ، وكانت زوجة عمها تستر عليها تقصيرها أو جهلها بعمل البيت وتحمل عنها الكثير ، فماذا تفعل الآن ؟ هل سيرحمها عمها ؟ لا . . . إنه معروف بغضبه السريع وطبعه الشرس الحاد .

وعلى جناح السرعة تذهب حيث وعاء العجين ، وتجعله أقراصاً ، وتتجه نحو التنور . . . ثم توقده حتى يحمى . . .

ولأول مرة تحمل قرص عجين وترقّقه ، ثم تحمله على يدها الناعمة وتدخله في التنور . . . ولكن القرص لا يلتصق جيداً بجداره ، فيقع إلى أسفل ، وتمد يدها وتتناوله ، ثم يقع ثانية . وعندما تجتهد في تناوله هذه المرة ، تهبُّ النار في كم فستانها ، وعبثاً حاولت إطفاءها ، فقد كانت سريعة قوية ، حيث انتقلت إلى صدرها ومن ثم إلى جسدها كله !

وبينما كانت جيهان في زيارة لبيت عمها ، طلبت منها زوجة عمها أن تلحق بخاتمة ، فإنها تخبز لأول مرة ، ولم تأخذ معها الكفوف ولا الصدرية لتحمي نفسها ، وخشيت أن

يصيبها مكروه ، وعلى جناح السرعة تصل جيهان إلى التنور ، لترى جسداً مرمياً على الأرض تشتعل فيه النار !

وأخذت تخاطب نفسها وهي في حالة هستيرية :

ـ رباه ماذا أفعل ، وكيف أخلص أختي الوحيدة من هذه النار ؟ أختي . . حبيبتي . . . خانمة . . . !

ولم تدر ماذا تفعل وهي ترى النار تأكل جسدها دونما رحمة ، وبقيت تولول وتندب شقيقتها الوحيدة ولا ترى أنها قادرة على فعل شيء ، وفي لحظة اضطراب وهلع ، رمت بنفسها على أختها . . . لحبها الشديد لها . . . وهي بذلك ترى أنها ربما استطاعت أن تطفىء إحدى النارين : النار المشتعلة في جسد أختها ، أو النار التي تحرق قلبها . . . ولكن متى عرفت النار رحمة ؟! لقد اشتعل فيهما . . . حتى حولتهما إلى رماد !

* * *

وانطلق نناس وإيڤلين بفرسيهما حتى وصلا إلى الحدود الروسية ـ التركية . وقالت إيڤلين لنناس :

ـ إذا تعرض لنا أحد من حرس الحدود الروس ، فتظاهر بالبلاهة . . . بالخرس . . . بالطرش . . . بالجنون . . . لا تسمع ولا تتكلم ، وسأتصرف أنا . وقدّر لهما أن يمرّا بسلام ، ودون أن يسمع بهما أحد .

وعندما اقتربا من الحدود التركية قال لها نناس :

ـ والآن أتى دورك يا إيڤلين . أنت الآن ستتظاهرين بالبله والجنون . . . بالخرس أو الطرش .

ولكنهما قطعا الحدود التركية أيضاً بسلام ، ولم يتعرض لهما أحد . ثم تابعا مسيرهما حتى وصلا إلى قرية نناس . . . الصخرة المثقوبة .

ومرّ بفرسه على بيته . . . لكنه رآه مهجوراً . . . وأصبح مسكناً للجرذان والطيور الشاردة . فأراد أن يمرّ على بيت عمه . . . وفي الطريق . . . أخبر بالمأساة . . . مأساة أمه وابنتها الصغيرة خاتونة . . . ثم مأساة شقيقتيه جيهان وخانمة . وكاد أن يسقط مغمى عليه لولا أنه تماسك ووصل إلى بيت عمه خليل .

ولكن عمه عندما لم يجد معه ابنته قال والغضب يتطاير من عينيه :

ـ أين كُلبهار ؟ من تكون هذه المرأة التي معك يا ناس ؟

قال في ثقة وحزم :

ـ يا عماه إن كُلبهار نالت جزاءها بعد أن تخلت عن دينها وأصلها . . .

قال عمه وقد ازداد غضبه :

ـ أنت كذاب ، إن كُلبهار ابنتي وأنا أعرفها جيداً ، إنك لست رجلاً ، إنني خُدعت بك . أنت رجل خائب ، ومن خيبتك أتيت بهذه المرأة لتموّه وتغطي على جريمتك وكذبتك . . . إنك ما ذهبت لتبحث عن كُلبهار ، ولكنك تظاهرت بذلك ، أنت كنت مختبأ بين هذه الجبال طوال هذه المدة ، وأتيت بهذه المرأة لتصدقَك الخبر ! ولكن لا تفكر بأنني سأصدقك . . . إنه لا مقعد لك في هذه القرية بعد اليوم إلا برجوع كُلبهار !

قال ناس مقهوراً :

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. . أهذا جزاء ما فعلت ؟ أنت ما زلت على عهدي بك يا عم ، أنت وحدك الصادق. . . وغيرك دائماً هو الكاذب ! لا يا عم ، لا أريد مشكلات مع أهلي ، ابق أنت بين أولادك وسأرحل أنا ، وأعاهدك بأن لا أعود ثانية ، ولن أدع أحداً منكم يعرف مكاني ، ومن هذه الساعة ، والسلام عليكم. . .

وأكملا مسيرتهما إلى حيث لا يدريان. . . ولمدة يومين ، وانتهى بهما المطاف إلى قرية لا يعرفان عنها شيئاً. . .

صورة أخرى قبل فتح الطريق

ويجد نناس راحته مع زوجته الجديدة إيڤلين ، فهي ما زالت شابة ـ في عمره ـ تتقد حيوية ونشاطاً . . . وقد اقبلت على دينها الجديد بإيمان عميق وطاعة كبيرة ، وأشعرته بحبها وإخلاصها . . . فوجد عندها الراحة والدفء والحنان . . . ووجد عندها تعويضاً كبيراً لما فقده من أهل ومال وأرض . . . وقد وجد عندها الأمل . . . من جديد . . . إنها حامل !

وفي ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك . . . ليلة القدر . . . شعرت إيڤلين بآلام الولادة . . . وللمرة الأولى ! ويسرع نناس فيحضر القابلة العجوز زينب ، ويبقى هو وراء الباب . . . ينتظر البشرى . ولكن الجنين أبى أن ينزل بالحسنى . . . وأمضت إيڤلين ثلثي الليل بالصراخ والآهات . . . كانت تصيح صيحات تهتز لها جدران الكوخ . . . ويقشعر منها جلد نناس . . . ولم تكن تقدر حبس هذه الآلام . . . حتى ملأت الجو المحيط بها أنيناً وشكوى ، وفقدت الوعي ثلاث مرات . . . حتى كادت القابلة تشهد عليها بالموت !

وماذا عسى أن يفعل نناس ؟

ـ إيڤلين . . . أيتها الحبيبة الغالية . . . أيتها الزوجة المطيعة المخلصة . . . لا تجزعي ، فهذه آلام لا بد منها . . . تحمَّلي واصبري ولا تقنطي من رحمة الله . . فلن يضيع عنده شيء . . . وكل شيء عنده بميزان . اللهم ارحم أَمَتك إيڤلين وسهل عليها ولادتها في هذه الليلة المباركة ، فإنه لا سهل إلا ما جعلته سهلاً . . اللهم خلصها مما هي فيه وفكها من هذا العذاب .

ثم أخذت دموعه تنهمر ، وهو شاخص بعينيه إلى السماء . . . ولم يترك آية من القرآن قد حفظها إلا وتلاها ، ولم يمرّ دعاء بخاطره إلا ودعا به . . وتعترف العجوز زينب أن حالة إيڤلين فريدة من نوعها ، فقد حضرت ولادات كثيرة ، وشخصت علاج معظمها . . . أما إيڤلين . . . فإنها لم تشاهد مثيلاتها . . . ولم يبق دواء أو بخور مما يستعمل لتسهيل الولادة إلا واستعملته . . دون فائدة !

ويشاء الله أن تضع مولودها قبيل الفجر . . . بعد عذاب بئيس . . . وصبر يفتت الصخر !

ويسمع نناس صراخ الوليد... فيخرّ ساجداً لله تعالى سجدة شكر طويلة... ويحمده على أن سلم له زوجته، وأهداه هذا المولود... ويهتز قلبه طرباً لهذا الصراخ... العذب... الجمل!!

ويدق الباب بهدوء، وينادي بلطف:

ـ أيتها العجوز... يا خالة... أخبريني بالله عليك.. طمئني قلبي... ما عدت أصبر... ماذا هناك؟

قالت العجوز من وراء الباب:

ـ أبشرك يا ولدي، لقدر رزقك الله طفلاً مثل القمر!

وتهلل وجه نناس وهو يقول:

ـ بشرك الله بالخير دائماً يا خالة... الحمد لله... وكيف حال إيڤلين؟

قالت العجوز في عجلة:

ـ إنها بخير... اتركنا الآن... بإمكانك أن تبقى وراء الباب حتى أخرج!

وترتخي أعصاب إيڤلين ، وتشعر وكأنها قد أُزيحَ جبلاً من على كتفها . . . وتقول للعجوز :

ـ الحمد لله . . . إنني لا أشعر بأي ألم . . أرى نفسي بخير يا خالة . . أرجوك ناوليني ذاك الطفل الذي عذبني حتى الفجر لأقبِّله وأشفي غليلي منه !

وبعد ساعة تستأذن العجوز :

ـ أنا خارجة يا ناس ، جعله الله ولداً صالحاً وأقرّ به عينكما . إياك أن تغفل عن إيڤلين ، فإنها بحاجة إلى خدمتك .

قال وهو يدخل الغرفة بسرعة :

ـ لا تشغلي بالك يا خالة ، فأنا رجل بيت ، وأفهم في الأمور المنزلية ، وسأعتني بها كثيراً .

ويدخل على إيڤلين ، فيبارك لها ويهنئها على سلامتها . . . وينحني على المولود ليرى فيه مرآة تعكس صورته وروحه . . . وأمنية جديدة من أمنياته . . .

ـ قدري . . .

سميتك قدري يا ولدي ، لأنك ولدت في ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر . . . ففيها نزل القرآن على سيد الخلق رسول الله ﷺ . أنت عيد جديد بالنسبة لي يا ولدي . . . وبلسم لقلبي الذي أثخنته جروح الماضي بذكرياته المرَّة . . . ومصباح مضيء لليأليَّ المظلمة . . . أنت أول زهرة في بستاني . . .

وأغلى من على الأرض في حياتي . . . حفظك الله من كل سوء يا ولدي .

وفي شيء من الدلال تقول له إيڤلين :

ـ ما بك يا ناس توقفت عن الحديث واكتفيت بكلمات معدودة ساعة دخولك ؟ كنت أظن أن السرور سيغمر قلبك ، وستطير من الفرح .

قال وما زال وجهه مهللاً بالبشرى :

ـ إن الفرحة عقدت لساني ، وما أحمله بين جنبي يرقص فرحاً وطرباً ، لسلامتك وسلامة هذا المولود . . . صدقيني

يا عزيزتي إيڤلين إنه لا ينقصني الآن سوى جناحين أطير بهما كي أطوف بهما جميع أنحاء العالم ، وأخبر ساكنيه بفرحتي التي أنا فيها . . . إنني أحس يا إيڤلين بأنني أسعد إنسان على وجه الأرض !

وتبتسم إيڤلين نصف ابتسامة وتقول :

ـ يا نناس إن هذه الدينا غريبة . . . قبل قليل ما كنت تعرف أين تذهب بنفسك من الهم والحزن . . . والآن لا تعلم أين تذهب بنفسك من الفرح والسرور !

قال نناس :

ـ يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ وأنا يا إيڤلين أصبر عند العسر ، وأنتظر الفرج ، وعندما يأتيني الفرج أرقص هكذا . . . انظري . . . انظري . .

إنه يا إيڤلين لا عسر إلا ويليه يسر ، وهذا رحمة من رب العالمين .

وغداة الغد تطرق بابهم العجوز لتطمئن على صحة إيڤلين

وابنها . . ويتجاذبون أطراف الحديث . . . فتقول العجوز :

ـ مـا شـاء الله . . . إنـه شبـه نـنـاس تمـامـاً . . . أنفـه . . . فمه . . . كل شيء فيه .

وتقول إيڤلين في ثقة ورضا :

ـ الحمد لله .

لكن ننـاس ينظر إليها من طرف خفي ويقول :

ـ ليته كان شبه أمه .

قالت إيڤلين :

ـ لا . . . لا . . . لا أريد أن يكون شبهي ، لا أريد أن يكون شبه النساء .

قال ننـاس في استغراب :

ـ ولماذا ؟ ما بك ؟

قالت :

ـ إنني أكره النساء . . . أصبحت أكره نفسي لما فعلته بك

ابنة عمك ، ودمرت الصرح الذي بنيتموه . . . كان على كُلبهار أن تكون الأم بدلاً مني ، والولد كان يجب أن يكون ولدها هي لا ولدي أنا . . .

وتنهد نناس . . . ثم صمت فترة وقال :

ـ كفى يا إيڤلين . . . كفى . . . إن ابنة عمي قد خانتني ، وقد نالت عقابها العادل . . . وإياك أن تعودي إلى الماضي ثانية . . . إنه ماض مرٌّ أسود . . . دعينا في النور الذي نعيشه الآن يا عزيزتي . . . لقد أغلقت باب الماضي وما عليك إلا أن تكوني قفلاً له لا مفتاحاً . . . ثلاث سنوات مرّت دون أن أحدثك عن الماضي يا إيڤلين .

وقالت إيڤلين في أسف :

ـ لا تلمني يا عزيزي . . . إنه قلب المرأة الغيور ، كنت أريد أن أعرف مدى حبك لي ، ولأطمئن ما إذا كان قلبك معي أم مع غيري ، أعاهدك يا نناس ألا أذكرك بالماضي البتّة .

قال :

ـ كل ما أفكر فيه الآن يا إيڤلين أن أخدمكما وألبي طلباتكما ما دمتما بحاجة إلي .

قالت في هدوء :

ـ إذا شفاني الله يا نناس ، فسأعوضك ضعف ما بذلت من تعب لأجلي . . .

قال :

ـ ويحك يا إيڤلين ، أهو دَيْنٌ أقرضه إياك ؟ إياك أن تعيدي هذا الكلام ثانية ، إنني أخدمكما من كل قلبي ، ويشهد الله أنني جد سعيد بذلك .

وتمر الأيام هنيئة . . . دون أكدار ، ونناس وإيڤلين كأنهما في عالم الأحلام . . لسعادتهما بالمحبوب الصغير قدري ، الذي يملأ يومهما بأحاديث المستقبل . . . وبالأمل . . . والابتسام .

وكان هذا الانشراح الذي يراه نناس ، داعياً لأن يفكر بتعويض بعض ما فاته من طاعة وخدمة لوالديه . . . وبدأ يفكر

جاداً للذهاب إلى الحج بدلاً عن والده الشيخ محمد ، وكان يعمل . . . ويدخر كل ما فضل عن حاجتهم لذلك .

أما أمه . . . فإنها تقلقه أكثر . . . وعندما يتذكر الأسفار الشاقة . . . . يتذكر ما أصابه في رحلة البحث عن كُلبهار . وكان البحث عن والدته هدفاً آخر له . . . بعد الحج عن والده ، وعندما يستطيع قدري أن يعتمد على نفسه ، ويعيل أمه إيڤلين !

ولكن إيڤلين ، وقبل أن تقضي نفاسها ، أصابها نزيف حاد ، قضى على قوتها وقدرتها على القيام بواجبها نحو زوجها وابنها ، ولم ينقطع عنها النزيف إلا فترات قليلة ، عندما كانت العجوز زينب تقدم لها بعض الإسعافات المؤقتة ، وأمست الأم المعذبة هيكلاً أصفر باهتاً . . . وشعرت بدنو أجلها . . .

ـ وداعاً يا ناس . وداعاً يا زوجي الغالي . . . وداعاً أيها المعذب الحائر ، وداعاً يا صاحب الفؤاد الكليم ، وداعاً يا أعز ويا أغلى إنسان أفارقه . . .

عزيزي نناس : لا أوصيك إلا بهذا المولود الذي تركته ، إنه ولدك كما أنه ولدي ، فكن رحيماً به كما أنت رحيم بي الآن .

قال نناس وهو يمسك بيديها الضعيفتين ، ولا يكاد يتبين كلامه من البكاء :

ـ لا يا إيڤلين . . . لا . . . لا تتركيني ، فأنا لا أستطيع العيش دونك . . لا . . لا تودعيني فأنا لا أحب السفر . . . لقد سافر كل أهلي يا إيڤلين ، أيهون عليك أن يبقى نناس وحيداً ؟ لا . . لا تفارقيني . . إنني أكره الفراق . . .

وتتكلم إيڤلين بصعوبة بالغة :

ـ كنت أتمنى أن أعيش يا نناس مع قلبك الكبير الرقيق . ومع فلذة كبدي قدري . . . ولكن . . . ولكن . . . لا إله إلا الله محمد رسول الله .

نناس يبكي ويصرخ بأعلى صوته :

لا يا إيڤلين . . . لا . . . إن قدري محتاج إليك . . . إلى

عطفك . . . إلى حنانك . . إن قدري لن ينام إلا في حضنك ، إنه لا يرتاح إلا لدقات قلبك . . . إنه لا يحس بالدفء والراحة إلا على صدرك . . . عودي يا إيڤلين إلى قدري . . . ارجعي إليه . . لا تتركيه لشقاوة الحياة . . . إنه سيتعب . . . قدري يبكي يا إيڤلين . . . اسمعيه . . . . إنه جائع . . . أرضعيه ليكفَّ عن البكاء . . .

إيڤلين جامدة . . لا حراك فيها .

ويصرخ نناس بأعلى صوته :

إيڤلين . . . إيڤلين . . .

وينهكه الحزن والأسى . . . والقلق والاضطراب . . . وهو يتنقل بنظره بينها وبين قدري .

لا . . . لا . . . ستعودين قريباً يا إيڤلين . . . إنك ما زلت على قيد الحياة . . .

وبين القبور . . . يجلس عند قبرها ويأبى أن يعود . . .

ـ اذهبوا أنتم ، وبعد قليل سأعود أنا وإيڤلين معاً . .

لا تستغربوا . . إنها ستعود إلى ولدها ، هي التي ستقوم برعاية قدري . . . أما أنا فلا أملك لبناً أرضعه ، ولا أملك يدين رقيقتين أمسح بهما على جسمه . .

قالوا وهم يواسونه :

ـ صبراً يا ناس صبراً . . . كل نفس ذائقة الموت . . . إنه سنة من سنن الحياة لا نستطيع دفعها . . . ولا نملك إزاءها إلا الرضى والتسليم ، وهذه دار امتحان يا ناس ، والمؤمن يستعين بالله في كل أموره ، ويفوّض إليه بمالا يعلم سره وحكمته . . . إن مصيبتك كبيرة . . . عظّم الله أجرك . . . وجمع بينكما في الجنة إن شاء الله .

ويجيبهم ناس في حسرة وتنهد :

ـ شكر الله سعيكم . . . إنَّا لله وإنا إليه راجعون .

ويعود إلى الكوخ وظلامه ، وشبح إيقلين لا يفارقه ، وأخذ ما به من أسى يجرّ مآسي الماضي . . . حتى أمسى مهموماً مغموماً . . . يخاف من المصائب . . . من المستقبل . . . من السفر . . . من الموت !

ـ أين سيعيش قدري . . . وكيف ؟ هل سيكون كل يوم عند امرأة ترضعه ثم ترميه إلي ؟ ومن يدري ، فلعلني أفارق قدري يوم غد أو يفارقني هو . . . لا . . . لا أريد أن يذهب قدري أيضاً . . . إلهي ومولاي . . . أدعوك باسمك الأعظم ، وبأسمائك الحسنى كلها ، أن تميتني قبل قدري إن كان ذلك خيراً لي .

* * *

أرادوا نقل السفن إلى بحيرة وان فتعذر ذلك بسبب ضيق النفق
فاضطروا إلى تدميره بالديناميت وفتح الطريق عام ١٩٦٤

وتمر الأيام طويلة الأنفاس. . . وقدري يتنقل من بيت إلى بيت ، ليرتضع من ثدي أمهات كثيرات. . . ووالده وراءه يحمله كل يوم. . . فإذا حط رحاله في بيت. . . وضع ابنه بين يدي النساء ، ومضى هو إلى صاحب الدار يساعده في أعماله. . . حتى العشاء. . .

وقدري طفل وسيم كالبدر. . الصغار والكبار يحبونه ويحملونه ، ولا يملّون من ضحكاته ومداعباته المرحة. . . وقد كان هذا التجاوب من أهل القرية مع ابنه سبباً في إعادة الأمل إلى قلبه ، وبدء صفحة جديدة من حياته ! ولكنها ليست صفحة بيضاء نقية ، فلا يستطيع المرء أن ينخلع من ذكرياته وينسى ماضيه ، وكان كل أمله أن يحج عن أبيه ، ويدعو له عند الكعبة المعظمة ، ويطوف حولها ، ويتعلق بأستارها. . لقد تاقت نفسه إلى تلك الديار المقدسة ، التي يرى فيها المؤمن راحة وطمأنينة لا تتوفر في أي مكان آخر. . . عند السعي بين الصفا والمروة ، وعند الوقوف على جبل الرحمة والدعاء عليه ، والمبيت في مزدلفة ومنى ، وشرب ماء زمزم

والدعاء عنده. . . كم سيرتاح عندما يقول : لبيك اللهم حجة عن والدي. . . وكم سيشعر بالفرح ويغمره السرور عندما يعلم أن والده مطمئن في قبره. . . قد غفرت ذنوبه كلها. . .

عندها سيعلم أنه قد أزاح عن نفسه بعض ما يشعر من تقصير تجاه والده .

ويتذكر والدته الحنون. . . فيعتصره الألم :

ـ عهد عليّ يا أماه ، إذا كبر قدري ، واستطاع أن يعتمد على نفسه ، أن أبحث عنك وعن شقيقتي الصغرى خاتونة. . . ما استطعت إلى ذلك سبيلاً. . . وقد يقدّر الله تعالى أن أحج عنك أيضاً. . . ولا أرى أنني أستطيع ردّ جزء مهما قلَّ من تعبك وشقائك .

وأخذ نناس يعمل واصلاً ليله بنهاره ، جاعلاً نصب عينيه هدف الحج هذا العام. . . مع قافلة الحجاج ، وقد جمع ما يكفيه ، ولم يعد يشغله سوى فراق قدري الذي لم يزد عمره على سنة ، وبضعة أيام. . . ولكنه يعود إلى صفاء نفسه وهدف رحلته : سأتركه في رعاية الله وحفظه. . . وهذه قلوب كبيرة

في القرية ستعطف عليه ، ثلاثة أشهر ليست بالكثيرة .

ولكن لم يقدر الله له سفراً في تلك السنة ، وبقي يمني نفسه بالسفر كل سنة ، حتى امتدت إلى سبع سنوات ، وقد تعلم من تلك الظروف أن يفكر تفكيراً متزناً ، ويتحسس الأمور بتؤدة وحكمة ، ولا يحسمها بسرعة ، بل يتأنى في ذلك ويستشير .

بعد تلك السنوات الطوال ، يفرج عليه ، وينوي السفر للحج . . . وبدأ قلبه يخفق !

إنه سيفارق أغلى حبيب وأعزّ صديق على قلبه . . . إن مكانته عند أبيه في كل مكان . . . رجل لا أهل له ولا رحم إلا هذا الولد الصغير . . . أين سيكون موضعه من القلب !

ويطرق عليه الباب صديقه الحميم صلاح الدين ، ويخبره أن السفر سيكون فجر بعد غد . . .

ويحمد الله تعالى على هذا التيسير ، وأن يسّر لابنه جماعة ذوي قلوب طيبة رحيمة . . . سيكون مطمئناً ومرتاح البال عندما يتركه في عهدتهم . . .

وفي الليلة الأخيرة ، يسهر مع ابنه ، وينصحه ، ويسرد له حكايات شيقة جميلة . . ويداعبه . . . حتى ينام . ثم يقبله قبلات الأبوة الحانية ، ويذرف عليه دمعات الشوق والفراق . . . ويتمتم في كلمات متقطعة :

ـ لن أطيل عليك الغياب يا ولدي !

ثم يمرّ على جماعة فيوصيهم بابنه ، ويبشرونه خيراً ، ويعاهدونه على أن يعاملوه معاملة أولادهم ، فيستودعهم الله ، ويقطع على نفسه عهداً أن يجتهد في الدعاء لهم هناك . . مما تشدّ إليه الرحال . . . للعبادة . . . والدعاء .

وهذا بعد تعبيد الطريق

وفي ملتقى عدة قرى اجتمعت قافلة الحجاج في الموعد المحدد ، لتنطلق برعاية الله ، وكان أميرها الحاج أحمد في السبعين من عمره ذكياً ، ورعاً ، ذا مهابة . . . أسمر اللون . أبيض اللحية كثّها . ورغم تقدمه في العمر إلا أنه كان نشطاً ، حاد النظر ، ذا صوت جهوري ، عارفاً بالدروب . . . إنها الحجة الرابعة للشيخ . . .

وسارت القافلة أياماً وليالي طويلة ، إلى أن وصلت الموصل ، حيث استراح فيها الحجاج مدة يومين ، تزودوا فيها بأقواتهم . . . وأخذت دوابهم راحة كافية !

أما نناس فقد اشترى كمية كبيرة من التمر . . . واستغرب ذلك أمير القافلة الحاج أحمد وقال له :

ـ لِمَ كل هذا يا نناس ؟ إنه حمل ثقيل عليك وعلى راحتك . .

قال نناس :

ـ إنه لا يدوم يا عمي الحاج ، سأتصدق بها على الفقراء في الطريق إن شاء الله .

قال الشيخ أحمد :

ـ خيراً ما تفعله يا ولدي ، تقبل الله منك وغفر لك ولأهلك .

ويمشي نناس إلى جنب الحاج أحمد ، ولا يبدو أنه متأثر من السفر .

فقد لاقى مشقات أكبر منها . . وصبر على وعثائها ولأوائها ، ويجذب ذلك انتباه الحاج أحمد فيقول له :

ـ لا أراك متعباً يا نناس ، وكأنك قد تعودت على الأسفار . . . هل حججت قبل الآن ؟

قال في ابتسامة :

ـ نعم يا عم ، حججت مع خالي رحمه الله وأنا في الخامسة عشرة من عمري .

قال الشيخ :

ـ وهذه حجة ثانية ؟

قال :

ـ سأحج عن والدي الشيخ محمد إن شاء الله .

ويستفسر الحاج أحمد عن والده ، ثم يمتد بهما الحديث حتى يسرد له نناس قصة بؤسه وشقائه في هذه الحياة . . . وهو يتنهد ، ويتأوه بعد كل حديث قصير .

وكانت الشمس تتوسط السماء ، وتقذف بلهيبها على الأحجار والأشجار والركبان . . . وكان نناس قد أجهده حديث الذكريات المرة . . وشعر باختناق . . . فنزع غطاء رأسه وكأنه يريد نسمة هواء . . ولكنه لم يتلق سوى سيل من الكتل الحرارية التي دوّخت رأسه . . . وبدأ العرق يتصبب من رأسه ووجهه . . . ويديه . . . وجميع جسمه ، حتى ابتلت ثيابه وكأنها قد غسلت لتوّها ! وغدا لونه أصفر وكأنه ليمونة تعصر . . . ثم يبست شفتاه . . . وزاغ بصره . . . . ووقع من على الراحلة . . . ميتاً !!

ودفن في أراضي الموصل .

* * *

لم يعد شبح نناس يفارق الحاج أحمد. . فقد تأثر بقصته ، وتألم لألمه ، واستغرب رقة قلبه. . . وصفاء نفسه. . . وتذكر هو وصديقة الحميم صلاح الدين آخر كلماته وهو يرددها ، وكأنه كان يذوب فيها ذوباناً. . . إنه كان يتفوّه بألم وحرقة وكمد :

قدري. . . قدري !

فكان صلاح الدين ينتظر العودة ليأخذ قدري ويضمّه إلى أسرته. . . وكان يرى ذلك واجباً من واجبات الأخوة في الله ، عدا ما لكافل اليتيم من أجر كبير. . .

ويقضي الحجيج مناسكهم ، ولم ينس رفاق نناس الدعوة له ولوالده الذي كان ينوي الحج عنه ، وعادوا. . .

وفي طريق عودتهم مروا بقبره وترحموا عليه. . . .

ووصل كل إلى مكانه. . . إلا صلاح الدين ، فقد مرَّ بقرية نناس ليأخذ معه قدري. . . ولكن أمه في الرضاعة (سعدية) زوجة مراد ، أبت أن تسلمه ، لحبها الشديد له ، واستئناس

أولادها به ! لكن زوجها بيَّن لها مدى الصداقة الحميمة التي كانت تربط بينه وبين نناس ، وأنهما قد تآخيا في الله ، وكانا يتزاوران كثيراً . . . فكانت أسرة مراد وكأنها في مأتم لفراقها قدري . . .

أما هو ، فقد كان قلبه الباكي ، مثل عينيه اليتيمتين الحائرتين . . .

ولم يدع صلاح الدين فرصة لقدري كي يحزن ويبكي ، فقد سرد له في الطريق أجمل القصص وأروع الحكايات . . . وعندما وصل إلى قريته القريبة ، عرّفه بأولاده الصغار ، وقدم لهم الحلوى والهدايا ، وكان يضمّه إلى صدره ويقبّل عينيه . . . وكأنه أعزّ وأغلى أولاده !

وفي المساء ، كان أرهق صلاح الدين إرهاقاً شديداً ، وقد أخبر زوجته أنه كان قد نوى الحج عن والدته ، فلما رأى حب نناس الشديد لأمّه ، وكان يدعو أن يقدر الله له حجة ثانية عن والدته الطيبة التي شقيت من أجله ، لما رأى ذلك منه ، قال بأن عزم نناس الحج عن والده قد وقع حجة وتقبلها الله ـ إن

شاء الله ـ ولو لم يحج ، أما أنا فحجتي هذه عن والدته . . . هيلانة !

أما الحاج أحمد ، فقد سرد لأهل القرية قصة نناس ، وأنه من الرجال النادرين حباً ووفاء وإخلاصاً . . . ورقة قلب . . . . وأنه لما رأى حبه الشديد لوالده ودعوته أن يقدر الحج عنه هذا العام ولم يقدر له ذلك ، فقد نوى هو الحج عن والده ، تقديراً وتتميماً لما نوى عليه ، ولن يضيع الله أجر من أحس عملاً .

وينتشر خبر الحج عن والديْ نناس بين أهل القرية . . . ومع انتشاره يتفاجأ الأهالي بنبأ وفاتهما . . . أيضاً . . . فقد سلما أرواحهما للباري عز وجل ، الحاج أحمد ليلاً ، وصلاح الدين في الغداة !

* * *

ويعود قدري إلى أمه في الرضاع... سعدية... وإلى قلبها الواسع الكبير ، وإلى (والده) مراد... الرؤوف... الكريم....

ويُمضي سنوات في التعليم عند إمام القرية مع أخيه في الرضاعة إدريس ، حتى يشبّ ويترعرع .

ويسمع قصته... وقصة أبيه... وجده... وجدته... من هنا وهناك ! فيتعرّف على حقيقة شخصه !

لا أب... ولا أم... ولا أخ... ولا أخت ، ولا عم... ولا خال !

وبدأت الأفكار والهواجس تناوش قلبه وعقله ليل نهار ! حتى لم يعد يعرف طعم الحياة من الموت... إنه أشبه بزهرة صغيرة في صحراء قاحلة ، تهب عليها رياح قوية ، ورمال محرقة ، وحشرات ضارة...

وبدأ قدري يهتم بأمره ويغتمّ لحاله كلما سمع عن أخبار والده ومآثره الحميدة ، وقلبه الطيب الرقيق ، وتذكر ما تعلق بذاكرته من حياته مع والده وصورته الجميلة ، ويده الحانية ،

وصحبته معه أينما كان. . . حتى تمنى لو لم يكن موجوداً. . . وتمنى أن يكون عشبة في المراعي تأكلها الأغنام . أو زهرة تقطفها يد طفل بريء ، أو طيراً يصطاده الصيادون ، أو حتى فريسة لوحش الغاب. . . وتمنى أخيراً لو لم يتعرف على نفسه. . . فقد رأى أمامه درباً شاقاً طويلاً. . . ربما لا يقوى على سلوكه ، يعزّ عليه مفارقة أسرة أعطته الحب والحنان. . . واعتنت به كما اعتنت بابنها وابنتها. . . ولم يشعر يوماً أنه غريب عنها !

وأخيراً ! !

قرر أن يزور والده. . . ولو كان ميتاً !

فالمهم أن يكون على مقربة منه ويرتاح باله ويطمئن قلبه. . . يريد أن يبقى في وطن مات فيه أبوه. . . ليعيش بين ذرات ترابه التي يشمّ منها رائحة الأبوة الغالية. . . أب كهذا. . . لا يترك وحيداً يا قدري. . . فما بالك تتردد في القرب منه ؟!

ويترك رسالة وداع. . . وتوصية. . . لأسرته :

والدي مراد : لن أنسى فضلك الكبير وإحسانك الجزيل وتربيتك القويمة ، وعنايتك الفائقة ، وتعليمي القرآن الكريم . . . وما صرفته علي من أموال !

أمي سعدية : يا صاحبة القلب الكبير ، ستبقين في الفؤاد تلك الشمعة المضيئة . . . المحرقة . . . مضيئة لمعاملتك الطيبة الرقيقة . . . حتى لم أحس أن لي أماً غيرك ، ومحرقة . . . لذكراك عندما أفارقك . . . فهل سأصبر ؟!

حبيبي وأخي الغالي إدريس : أيها الرفيق الودود . . . يا صديق الصبا والذكريات الجميلة . . . مع من سأنام . . . وإلى من سأتحدث بعدك ؟

أختي بهية . . . لن أنسى ذكريات الطفولة البريئة ، ولن أنسى صوتك الشجي الحنون ، وخدمتك لي كما كنتِ تخدمين شقيقك إدريس .

أهلي وأحبابي :

يعز علي فراقكم . . . ولكن ربما كان ذلك قدري . . . فما عدت أستطيع البقاء على هذه الأرض ، وما عدت أصلح

للحياة بينكم وأنا مهموم مغموم طوال الوقت. . سأذهب إلى حيث والدي ، وأنصحكم بعدم تتبع أثري. . . فلن يفيدكم ذلك. . . وسأسلك طُرُقاً وعرة يصعب تتبعي فيها. . . الوداع. . . وسلام الله عليكم .

ابنكم قدري

وفي الليل. . . يرحل قدري. . .

ويسفر فجر الأسرة عن فجيعة فقدانه بينهم. . .

ويتلو إدريس رسالته عليهم. . . فتمتزج الحرقة والآلام لتشكل قنوات من الدموع الغزيرة. . . على قدري. . . الشاب الحبيب الرقيق. .

ويصرُّ مراد على ملاحقته وتتبعه لردّه إلى البيت ، رغم معارضة ابنه إدريس الذي بين له أنه لن يراه ، فقد ذكر ذلك بوضوح في وصيته. . . ولكن الوالد لم يصبر على فراقه ، وقد أخذ منه البكاء كل مأخذ .

ويركب فرسه. . . تاركاً أسرته قلقة حزينة ، ويسأل بعض

القرى فتخبره أنه اتجه إلى التالية منها ، حتى وصل إلى قرية فقالت إنه كان موجوداً هنا أمس ، وقد قرر العودة إلى قريته بعد ندمه على السفر وعدم قدرته على مواصلة السير . .

ويفرح مراد ، ويحمد الله تعالى على أن أراحهما كليهما . . .

وفي العودة يسأل أسرته عن قدري وهو يبتسم . . . ولكن . . لم يصل . . . كان حديثه لأهل تلك القرية تورية ، ليعود إلى مكانه من كان يبحث عنه ويقطع الأمل في تتبع أثره ! إلا أن مراد قطع على نفسه أن يذهب إليه في الموصل في طريقه إلى الحج هذا العام ، ويعود به حينما يعود .

* * *

وقد طال سفر قدري حتى وصل إلى الحدود التركية العراقية . . . إنه غرّ جاهل . . . لا يعرف الدروب . . . ولم يحصل له أن سافر من قبل . . . وكاد يهلك من العطش والإرهاق . . . ولكن الله سلّم . . . حتى قبض عليه حرس الحدود العراقية ! وأحيل إلى الضابط ليحقق معه :

ـ أنت متهم بالسطو على القافلة مع أفراد العصابة !

قال قدري في دهشة :

ـ أين ومتى يا سيدي ؟!

قال الضابط وهو يحدّ فيه النظر :

ـ على الجبل ، وفي المكان الذي قبض عليك .

قال في ثقة وبراءة :

ـ لم يحصل والله يا سيدي .

قال الضابط :

ـ إذاً ما سبب وجودك هناك وفي ذلك الوقت ؟

قال في ضعف واستكانة :

ـ أتيت لزيارة والدي . . . ولم أكن أعرف الدروب المؤدية للمدينة بشكل جيد .

قال الضابط :

ـ من هو والدك وأين هو ؟

قال قدري في حرقة وألم :

ـ أبي نناس ، وهو يرقد تحت ثرى هذه المدينة .

قال الضابط :

ـ على كل حال ، قبض عليك في مسرح الجريمة وبعد حدوث الحادث ، ولم يكن هناك من أحد سواك ، وقد تكون بريئاً ، لكنك ستبقى في السجن حتى تتبين لنا خطوط الجريمة ، وأفراد العصابة . . . عندها سيفرج عنك .

وقال قدري في خضوع وذلّ :

ـ أقسم لك بأنني بريء ، ولا أعرف شيئاً اسمه النهب والسرقة . . إنني أخاف الله . . منذ شهر وأنا أسير في البراري وعلى الجبال ، وبين البساتين والحقول ، وما امتدت يدي إلى ثمرة واحدة . . بل ولا إلى حبة عنب من بساتين الكرم الكثيرة . . فكيف أسطو على أموال الناس ، وأخوّفهم ، وأتعدى على حقوقهم ؟! .

ونادى الضابط زبانية السجن :

ـ خذوه إلى السجن .

* * *

ويزج بالغصن الطري في كهف الظلام والآلام. . . . . .

ـ ما بال الربيع لا يبتسم ؟!

ما بال أزهاره واجمة لا تطرب لتغريد الطيور ؟!

ما بال أعشابه الطرية لا تنتشي لتحية الصباح ؟!

ما بال فراشاته ساكنة مختبئة في زوايا أغصان منحنية حزينة ؟!. . .

ـ رويدك أيها السائل ولا يشطط بك الخيال ! .

أي ربيع هو ذاك الذي يعيش في قلعة حصينة ، يلفه ليل دامس أعمى ، لا يأنس بجمال قمر . . ولا يتدفأ بحرارة شمس ؟

أهو ربيع ذاك الذي سور بساتينه من قضبان فولاذية صلبة ، وأبوابه من معادن قاسية غليظة ؟ وحرّاسه يشهرون السيوف ويحيّون بالسياط ؟

أتريد ربيعاً أخضر في قفص حديدي أصم أبكم ؟!

. . . . . .

ـ حقاً !!

إنه هزيل الجسم ، شاخص العينين ! قسمات البؤس والشقاء تبدو على وجهه . . ينظر بعيداً ، نظرات البائس المسكين ، فيها الأمل والألم . . . لا تكاد تنقطع آهاته وتنهداته . . لم يكمل ستة عشر ربيعاً بعد !

عجباً !

مضى عليه شهر في هذا المكان وهو لا يألف أحداً . . ولا يكاد يترك مكانه وراء الباب ، وكأنه ينتظر نداء السجان بالإفراج عنه ، ولا يدع القضبان التي يمسك بها وكأنه يمسك بقية أمل في قلبه . . كي لا يطير ، فتطير روحه ! وتزداد حاله سوءاً .

فهو لا يستسيغ الطعام ، وغالباً ما يكتفي بوجبة واحدة في اليوم . . يأكل وكأنه على سفر !

ماذا أيها الصحب ؟

أنتركه هكذا . . كئيباً ، تذوب نضارته . . وتتآكل آماله ؟ إنه لو ظل هكذا ، لأدت به حالته إلى الهلاك .

* * *

همسات بين المساجين تتعالى شيئاً فشيئاً وهم يتناقشون في أمر « قدري » الشاب البائس !

ونادى السجان سالم بصوت عال :

ـ ما هذا الضجيج ؟ اقطعوا الصوت يا بهائم !

وفي الحال خيّم السكوت على المساجين ، وكل واحد منهم أخذ مجلسه وبأقصى سرعة ممكنة ، وكأن شيئاً لم يكن . . ولكن بقي قدري واقفاً وراء الباب ، متمسكاً بقضبانه الحديدية ، غارقاً في الهواجس والهموم .

ويفتح سالم الباب ويدفعه بكل قوة . . وكلمح البصر يسحب (كوزال) قدري من خلف الباب ، فيسلم من الضربة المصيبة ! ويقف المساجين كلهم خوفاً من سطوته ، ويتجه نحو كوزال ، المقبوض عليه بتهمة القتل ، والذي يعتبر مسؤولاً عن المساجين لأقدميته ، ويصيح في وجهه :

ـ لماذا ترفعون أصواتكم ؟ حتماً لا توجد أسباب . . لعلكم اشتقتم إلى سوطي الذي لم ينهل على أجسادكم منذ مدة ، ستعلمون كيف أؤدبكم الآن . .

ويلتفت إلى مرافقه قائلاً :

ـ أعطني السوط بسرعة .

ويتدخل كوزال بهدوء قبل أن يستفحل الشر ، ويخاطب السجان في ذل واستعطاف :

ـ يا سالم أفندي ، أي سجين باستطاعته أن يخالف أوامرك ؟ إن من يتعدى حدودك سيرى جزاء ما يفعل . .

قال السجان في غضب :

ـ حسناً . . أريد أن تكونوا جميعاً مثل كوزال تعرفون كيف تجلون أسيادكم . . . وإلا فإنكم تعرفونني جيداً . ثم يأخذ بيد كوزال جانباً ويسأله سراً :

ـ لم تقل لي بعد سبب هذه الضجة ؟

قال كوزال في هدوء :

ـ أيها السيد إنها صيحات عفويه خرجت من أفواه المساجين عندما رأوا ثعباناً صغيراً مرّ من بينهم .

قال :

ـ وهل قتلتموه ؟

قال كوزال :

ـ كلاّ لم نقتله ، وقد استطاع أن يهرب ويدخل أحد هذه الشقوق .

ويخرج السجان سالم ، ويغلق الباب على المساجين . . ولكنه نسي أن يسأل من كان وراء الباب . .

مضت فترة والصمت ما يزال يرخي سدوله على المساجين ، ثم عادوا ثانية إلى همساتهم وبحرص . . .

ويقترب العم جميل من كوزال ، ويهمس في أذنه :

ـ أخي كوزال ، مالي أراك تسرح بعيداً ؟ هل نسيت ما كنا بصدده ؟ انظر إليه مرة أخرى ! ولاحظ نظراته الشاردة البعيدة العميقة . تمعَّن قي قسمات وجهه . . ألا ترى الحزن يتقطر من وجهه ، والكآبة تلفه وتكاد تخنقه ؟

فاتحه بحديث ليّن ، كلّمه بعطف وحنان ، حتى يفتح لك صدره ، عسى أن يذهب بعض ما به !

قال كوزال بعد أن اطمأن على ذهاب السجان :

ـ حسناً يا جميل ، سأفاتحه بحديث من حيث لا يدري ، وسأدعه يحسّ بالراحة والطمأنية إلى حديثي الذي سيلائم قلبه الحزين . . .

ـ قدري ، هل تعلم بأنني رأيت فيك صورة ولدي الذي فارقته منذ سنوات ؟ لقد كان في سنك ويشبهك تماماً ، حقاً يا ولدي إنني أرى فيك ذلك البرد والسلام الذي يشتاق إليه قلبي ، ويذرف له عيني . . . وغداً عندما تتزوج ويرزقك الله الأولاد ستعلم كيف يكون حب الآباء للأبناء !

قال قدري وهو خائر الأعصاب :

ـ وما الذي أتى بك إلى هنا يا عم ؟

قال كوزال :

ـ لقد ظلمني مختار القرية ، ذلك الغدار الأشر ، الذي لا يعرف الله ولا يعرف الشفقة والرحمة ، إنه عبد المال والنساء . . . الذي أوقعني في الفخ ليتمتع بشهوته الحيوانية ، حرمني من زوجتي وأولادي وأهلي وأرضي . . . كان يحب

امـرأة حسنـاء جميلـة ، كـان يخطـط لهـا ليصطـادهـا بشبـاك الغدر. . . وقد كانت هذه المرأة متزوجة من جار لي يدعى (كنعان) وانتهز المختار الفرصة التي اختلفنا فيها أنا وهو لمشكلات حدثت قديماً بين أهلي وأهله ، أدى إلى شجار بيني وبينه. . . ثم دعانا المختار إلى بيته وادعى على مرأى من الناس أنه أصلح بيننا. . وانتظر حتى طابت له الجريمة في الليل ، فبعث رجلاً من خفره بعد أن أغراه بالمال ليقتل كنعان ، ثم ليخلو له الجوّ مع عشيقته (نازلي). . . ثم ما أسهل أن يلصق التهمة بكوزال ، متذرعاً بالخلاف الذي حصل بيني وبينه. . . وهكذا فعل المختار فعلته الشنيعة. . وفي الصباح كان قد جهز من ينشر الخبر بين الأهالي بأن كوزال قد قتل كنعان. . . وبعدها يا ولدي ما رأيت حلاً لما جرى لي سوى أن ألوذ بالفرار لأنجو بنفسي مما يخطط له المختار ، وهربت من قريتي إلى هذا البلد ، وكنت قد عزمت على جلب أسرتي ، ولكن الخبيث بقي يلاحقني ويرمي بشباكه حولي ليوقعني فيها ، وليبعد شبهة القتل عن نفسه تماماً. . . وبقي يلاحقني من موضع إلى موضع حتى أوقعني في السجن. . .

وها أنا كما تراني أعيش على الأمل ، بعيداً عن أهلي وأولادي ، آكل وأشرب وأجلس بين المساجين ، أتكلم وأضحك معهم حتى يفرج الله عنا ، ويعود كل منا إلى مكانه . . .

وبعد لحظة صمت ترتسم بسمة على شفتي كوزال ، وينظر إلى قدري قائلاً :

ـ والآن . . . ما بال الربيع وهو حزين ؟ لماذا وروده ذابلة وألوانه شاحبة ؟

ما باله قد لُفَّ بكساء أصفر لا يعطي ذلك الرونق الجميل والنسمة العليلة ؟

وتنهَّد قدري طويلاً ، ثم قال في أسى عميق :

ـ كنت أتمنى يا عمي أن أبقى على حالتي ، أتلذذ بآمالي وأتقلب بين أحلامي ، لكنك جددت آلامي وأدميت جروحي . . . ماذا تأمل من ربيع جاء بدون شتاء ؟

هل ترى أن تكون جذوره قوية متشعّبة مليئة بالماء والغذاء ؟ وأوراقه خضراء يانعة ، وثماره ناضرة ناضجة ؟

دعني في أحلامي يا عم ، دعني في ذكريات الماضي الأليم . . . فهي مأساة كبيرة تمتلىء بالأسرار والأخبار ، وتفيض بالأحزان والأتراح ، وتعجّ بالغرائب والمفأجات . . . والمتناقضات . . . مثل وجهي . . . ألم تقل إنه ربيع حزين ؟

* * *

وهذا بعد تعبيد الطريق

ويبقى قدري في ظلام السجن مدة شهرين . . . وقد أمسى وردة ذابلة وشمساً آيلة للغروب .

ويودع المساجين . . . ويتجه نحو قبر والده !

وعند ما تعود قافلة الحجاج ، ومن بينهم مراد ، يمرّ بقبر نناس ، فيرى في محاذاته قبراً جديداً ، عليه غصن شجر لم ييبس بعد !!

* * *

محمد زكي رمضان يوسف